

من رؤساء الآباء

تأملات في حياة القديسين
يعقوب ويوسف



البابا شنودة الثالث

تأملات في حياة القديسين
يعقوب ويوسف
من رؤساء الآباء

Contemplation on the lives of
St. Jacob & St. Joseph
By H. H. Pope Shenouda III

1st Print

Cairo

June 1996

الطبعة الأولى

القاهرة

يونيو ١٩٩٦



صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم
الأبنا سنوده الثالث
بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية

قصة هذا الكتاب

إنها بعض محاضرات ألقيتها على طلبة الكلية الإكليريكية فى العام الدراسى ١٩٦٨/١٩٦٩ حينما كنت أدرسم مادة (العهد القديم) .

ثم عدت إلى الحديث عن أبينا يعقوب وابنه يوسف فى المحاضرات الروحية التى كنت ألقوها على الشعب فى الكاتدرائية المرقسية الكبرى بالقاهرة . وذلك خلال عامى ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ أى بعد أكثر من ربع قرن .

وأخيراً جمعت هذه المحاضرات ونظمتها ، وأضفت عليها . لكى أقدمها لك ليها القارئ العزيز فى هذا الكتاب الذى بين يديك .

إنها محاولة للدخول فى شرح الحياة الروحية لأبائنا الأولين من شخصيات الكتاب المقدس فى العهد القديم .

ولقد سبق أن نشرت لكم عن آدم وحواء ، وقاين وهابيل ، وموسى وفرعون ، ويونان النبى . والآن عن يعقوب ويوسف . وإن شاء الله سأصدر لكم كتاباً عن (حياة داود) أتوقع أن يكون فى أيديكم بعد حوالى الشهر .

على أن حياة كل من أبينا يعقوب وابنه يوسف، تشمل دروساً روحية كثيرة من عمل الله فيهما .

كان أبونا يعقوب إنساناً ضعيفاً أمام شدة أخيه عيسو، وأمام مكر وخداع خاله لابان، وأمام صراع زوجتيه ليئة وراحيل، وأمام أخطاء أبنائه ، وما فى قلوبهم من تأمر، ومن قسوة.. فكان لابد أن يسنده الله بمعونة خاصة .

قصته هى قصة إنسان يتدرج فى العلاقة مع الله . من لقاء فى بركة .. إلى صراع لطلب البركة .. إلى ملاك يصاحبه طول حياته ، إلى منحه روح النبوة .. كيف حدث

هذا؟ إنه ما تحويه هذه الصفحات .

أما قصة يوسف الصديق، فهي قصة إنسان يتولى الله تدبير حياته كلها . بخطة
إلهية محكمة وحكيمة ...

قصة الفتى المدلل .. التى تنتهى إلى قصة الحاكم الحازم .

قصة الإنسان الذى لا يدافع أبداً عن نفسه ، فيدافع الله عنه .

قصة الإنسان الناجح فى كل موقع يوجد فيه ، كابن، وعبد، وسجين، ووزير .. الإنسان
الوفى لوالده، ولأخوته مضطهديه .. والأمين لله فى طاعته ، وفى الشهادة لإسمه القدوس
كيف عاش؟ وكيف قاد الله حياته؟ وكيف نما فى حياة الفضيلة؟ هذا ما سوف تحدثك
عنه هذه الصفحات .

※ ※ ※

بعد هذا الكتاب عن يعقوب ويوسف، وما يليه عن حياة داود .. سأحاول أن أتابع معكم
نشر سير قديسى العهد القديم . فعندى مسودات لكثير من الكتب ، تحتاج أن أخرجها من
مكتبتى الخاصة فى الدير ، وأنقحها ، وأعيد كتابتها، وأقدمها للمطبعة ، بفضل
صلواتكم ...

ختاماً أرجو لكم جميعاً كل خير .

البابا شنودة الثالث

يونيو ١٩٩٦

يعقوب أبوالآباء إختاره الله وأحبّه قبل أن يُولد

نعم ، اختاره الله قبل أن يولد . بل منحه أيضاً البركة والسيادة وهو بعد فى بطن أمه .

وقال لأمه وهى حبلى " فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يُستعبد لصغير " (تك ٢٥ : ٢٣) . الكبير هو عيسو والصغير هو يعقوب . ويكلمنا القديس بولس الرسول فى رسالته إلى أهل رومية عن هذا الموضوع فيقول : "لأنه وهما لم يولدا بعد ، ولا فعلاً خيراً ولا شراً ، لكى يثبت قصد الله حسب الإختيار ، ليس من الأعمال بل من الذى يدعو ، قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير . كما هو مكتوب : أحببت يعقوب ، وأبغضت عيسو" (رو ٩ : ١١ - ١٣) .

إن قصة يعقوب ترينا كيف أن الله إختار ضعفاء العالم ، ليخزى بهم الأقوياء (١كو ١ : ٢٧) .

كَانَ ضَعِيفًا

نعم ، كان يعقوب ضعيفاً ومسكيناً . وكان يخاف من أخيه عيسو القوى الجبار ، رجل الصيد والسهام والنبال ...

ذلك الذى فى لقائه فيما بعد " خاف يعقوب جداً ، وضاق به الأمر " (تك ٣٢ : ٧) . وصلى إلى الله قائلاً "جنى من يد أخى ، من يد عيسو ، لأنى خائف منه أن يضربنى الأم مع البنين " (تك ٣٢ : ١١) .

يعقوب كان ضعيفاً باستمرار أمام عيسو . ولم يقوَ عليه ، إلا عندما كان عيسو متعباً معيى ، وقد قال " ها أنا ماضٍ إلى الموت ، فلماذا لى بكورية " (تك ٢٥ : ٣٢) .

إن الله يقف باستمرار أمام الضعفاء المساكين . أما جبابرة البأس المغتزون بقوتهم ،

يعقوب أبوالآباء إختاره الله وأحبّه قبل أن يُولد

نعم ، اختاره الله قبل أن يولد . بل منحه أيضاً البركة والسيادة وهو بعد فى بطن أمه .

وقال لأمه وهى حبلى " فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يُستعبد لصغير " (تك ٢٥ : ٢٣) . الكبير هو عيسو والصغير هو يعقوب . ويكلما القديس بولس الرسول فى رسالته إلى أهل رومية عن هذا الموضوع فيقول : "لأنه وهما لم يولدا بعد ، ولا فعلاً خيراً ولا شراً ، لكى يثبت قصد الله حسب الإختيار ، ليس من الأعمال بل من الذى يدعو ، قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير . كما هو مكتوب : أحببت يعقوب ، وأبغضت عيسو " (رو ٩ : ١١ - ١٣) .

إن قصة يعقوب ترينا كيف أن الله إختار ضعفاء العالم ، ليخزى بهم الأقوياء (١كو ١ : ٢٧) .

كَانَ ضَعِيفًا

نعم ، كان يعقوب ضعيفاً ومسكيناً . وكان يخاف من أخيه عيسو القوى الجبار ، رجل الصيد والسهام والنبال ...

ذلك الذى فى لقائه فيما بعد " خاف يعقوب جداً ، وضاق به الأمر " (تك ٣٢ : ٧) . وصلى إلى الله قائلاً " تجنى من يد أخى ، من يد عيسو ، لأنى خائف منه أن يضربنى الأم مع البنين " (تك ٣٢ : ١١) .

يعقوب كان ضعيفاً باستمرار أمام عيسو . ولم يقوَ عليه ، إلا عندما كان عيسو متعباً معيى ، وقد قال " ها أنا ماضٍ إلى الموت ، فلماذا لى بكورية " (تك ٣٢ : ٢٥) .

إن الله يقف باستمرار أمام الضعفاء المساكين . أما جبابرة البأس المعتززون بقوتهم ،

فبتركهم إلى قوتهم ولو إلى حين . حتى يدركوا أن قوتهم لا تنفعهم بشئ، فيصرخون في ضعف وفي التجاء إلى قوة الله ...

لقد اختار الله يعقوب الضعيف . وكثيراً ما نرى أنه قد اختار ضعفاء آخرين .

فعندما جاء صموئيل النبي ليختار واحداً من أولاد يسى ليمسحه بالدهن المقدس، وعبر أمامه كل أولاد يسى الكبار وأصحاب الوسامة، لم يختَرهم الله . بل اختار الصغير الذي كان مع الغنم ... اختار داود الصغير الذي ظل يتغنى بهذا الأمر قائلاً : صغيراً كنت في بيت أبى ، وحدثاً كنت بين بنى أُمى" .. "اخوتى كبار وحسان وهم أعظم منى . ولكن الله لم يسرَ بهم " ...

كان الناس يختارون دائماً الأقوياء . وعندما أرابوا اختيار ملك ، فرحوا بشاول أطول إنسان في الشعب (١صم ١٠: ٢٣) . ولكن الله ليس كذلك .. لقد اختار يعقوب وأحبه . وأحب فيه ضعفه ومسكنته .

العجيب أن يعقوب كانت له أيضاً ضغطاته السلوكية وأخطاؤه . ولكن عمل فيه روح الله حتى حوله إلى ذلك القديس الذي نتشفع به في صلواتنا .

كان من أخطائه الإعتماد على الخراف البشرية ، وعلى الحيل العالمية في حل مشاكله ...

إنه مثلاً يريد أن يأخذ البكرية من أخيه . فينتهز فرصة كان فيها أخوه جائعاً وفي غاية التعب ، يطلب منه طعاماً ليأكل ، فيقول له يعقوب " بعنى بكورتك " و" احلف لى اليوم" (تك ٢٥: ٣١، ٣٢) . وهكذا اشترى منه البكرية بما أعطاه من طعام . وهذا لا يدل طبعاً على محبة خالصة ، كما أن البكرية ليست متاعاً يباع ويشتري! ولكنها طريقة بشرية وإنتهاز للفرص .

هناك طرق وحيل بشرية أخرى لجأ إليها يعقوب :

« منها أنه خدع أباه اسحق ، لكي يباركه . وألهمته تلك الخداع أمه رافقة . نعم إنها قديسة ، ولكنها في ذلك الموقف بالذات علمته الكذب والتحايل واستخدام الذكاء البشرى بطريقة خاطئة . ولما خاف يعقوب من خطية الخداع هذه ، لئلا تجلب له لعنة ، قالت له " لعنتك على يا ابنى، اسمع لقولى .. " (تك ٢٧: ١٣) . فسمع لها ...

« وأيضاً عندما أراد يعقوب أن يعوّض خسائره في الأجرة من خاله لابان ، لجأ أيضاً إلى طرق وحيل بشرية (تك ٣٠: ٣٧ - ٤٣) ... حتى أن خاله سار وراءه وقال له

"خدعتنى" . وكاد يصنع به شراً ، لولا تدخل الله لحمايته (تك ٣١ : ٢٧) .

وأمر أخرى صنعها يعقوب . ولكن على الرغم من كل ذلك ، أراى أقف متعجباً أمام آية ذكرها الوحي الإلهى وهى :

"وكان يعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام " (تك ٢٥ : ٢٧) .

أى كمال هذا تقصده يارب ؟ وما مقياسه ؟ لعله بلا شك ، الكمال النسبى ، نسبة إلى ذلك العصر الذى عاش فيه يعقوب . على الأقل من جهة الإيمان (عب ١١ : ٢١) ، وإكرامه لوالديه على قدر استطاعته ، وعدم زواجه من بنات كنعان حسب وصية أبيه له (تك ٢٨ : ١) . ولم يفعل مثل أخيه عيسو الذى اتخذ له زوجتين من بنات الحِيثيين "فكانتاً مرارة نفس لاسحاق ورفقة " (تك ٢٦ : ٣٥) . كذلك كان عفيفاً ، ولم يكن مثل أخيه عيسو الذى قيل عنه إنه كان مستبيحاً (عب ١٢ : ١٦) . ولم يكن قاسياً مثله ..

على أية الحالات ، ظل الله يطهره من أخطائه التى كانت عن ضعف ، وليست عن فساد فى الطبيعة ، حتى صار أخيراً أبيض كالثلج ، وعمل فيه روح الله للنبوءة كما بارك أفرام ومنسى (تك ٤٨ : ١٤ - ١٩) وكذلك باقى أولاده (تك ٤٩) . فكما قال هكذا حدث لهم ..

حسب سبق علم الله ، اختار يعقوب دون عيسو ...

كما قال الكتاب " الذين سبق فعرفهم ، سبق فعينهم .. وهؤلاء دعاهم أيضاً .. وبررهم .. ومجدهم " (رو ٨ : ٢٩ ، ٣٠) . قبل أن يولد يعقوب وعيسو ، وقبل أن يفعلوا خيراً أو شراً .. كانت حياتهم المستقبلية واضحة تماماً أمام الله ، الذى يعرف كل شئ قبل أن يكون .

كان هو وأخوه توأمين . وعجيب أنه قيل عنهما :

تزامم الأحنوين

" حبلى رفقة .. وتزامم الولدان فى بطنها " (تك ٢٥ : ٢٢) .

إن الناس يتزاممون فى موكب الحياة . وكل منهم يريد أن يكون السابق ، وأن يكون الأول . وليس هذا بعجيب ، ولكن العجيب أن يتزامم جنينان توأمين !! ولقد كسب عيسو الجولة الأولى ، وكان هو السابق ، وخرج أولاً . " خرج أحمر كفروة شعر ، فدعوا إسمه عيسو " (تك ٢٥ : ٢٥) . وصار هو - حسب الميلاد - البكر

ولكن إرادة الله فى البركة كانت غير ذلك ...

عيسو كان الكبير . وكانت إرادة الله هى "كبير يستعبد لصغير" (تك ٢٥ : ٢٣) . كان عيسو الأول فى ولادته . ولكن يحدث أحياناً فى مشيئة الله : "كثيرون أولون يكونون آخرين . والآخرون يكونون أولين" (مر ١٠ : ٣١) . وهذا ما حدث مع عيسو ويعقوب . إن وضعك الله أخيراً ، فلا تحزن ولا تبتأس .

لعله من حكمة الله أن تكون كذلك . بل يقول الرب "إن أراد أحد أن يكون أولاً ، فليكن آخر الكل ، وخادماً لكل" (مر ٩ : ٣٥) (مر ١٠ : ٤٤) (مت ٢٠ : ٢٧) . كان الله يستطيع أن يجعل يعقوب يخرج من بطن أمه أولاً . لكنه أراد أن يبقيه صغيراً ، لكى ينسحق قلبه ويطلب المعونة من الله . وبنفس المنطق شاء الله أن يكون يعقوب أضعف من عيسو من جهة قوة الجسد . ولم ينتفع عيسو بقوة جسده ، وإن أخافت يعقوب !

كان عيسو رجل صيد ، يستطيع أن يُخضع حتى الوحوش .

"إنسان برية" (تك ٢٥ : ٢٧) . كان يعرف كيف يضرب بالسهام والنبال . كان شديداً . وربما الصيد أدخل فى طبعه شيئاً من القسوة ، أو كثيراً من القسوة . مما جعله يقول فيما بعد " .. أقتل يعقوب أخى" (تك ٢٧ : ٤١) . والله لا يحب القسوة ولا العنف . وكل الذين يستخدمون القسوة والعنف ، يخرجون أنفسهم من دائرة الله . وكثير من الذين حاربهم الله محاربة شديدة ، كانوا أشداء . والكتاب يقول "إن الله يقاوم المستكبرين . أما المتواضعون فيعطيه نعمه" (يع ٤ : ٦) .

لقد تزاحم يعقوب فى بطن أمه ، ولكنه لم يستطع ...

كان عيسو أقوى منه وهو جنين ، فخرج أولاً ... والتزاحم لم يفد عيسو ولا يعقوب ، لأن الله كان له ترتيب خاص قد أعلنه ، ولا يبنى على التزاحم ، إنما على التدبير الإلهى والحكمة الإلهية والمشيئة الإلهية التى لا بد أن تنفذ أخيراً .

والعجيب أن التزاحم استمر بين هذين الأخوين !..

ليس فقط فى من يخرج أولاً من بطن أمه .. إنما أيضاً كان لهما تزاحم حول البكورية لمن تكون ؟ وتزاحم آخر حول البركة . من الذى يسبق فيأخذها من أبيهما الشيخ اسحق ؟.. بل صار فيما بعد تزاحم بين نسلهما . ولعل هذا ما قصده الرب بقوله لرفقة "فى

بطنك أمتان . ومن أحماتك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب " (تك ٢٥ : ٢٣) .
فأولاد يعقوب هم شعب اسرائيل . وأولاد عيسو هم شعب أدوم ، لأن عيسو "دعى اسمه
آدوم" (تك ٢٥ : ٣٠) ...

يمكن لمن يبحث التاريخ أن يتتبع الحروب بين بنى اسرائيل وبنى أدوم . ولعلنا هنا
نشير فقط إلى قول المزمور "أنكر يارب بنى أدوم فى يوم لورشليم ، للقائلين : انتقضوا
انتقضوا حتى الأساس منها " (مز ١٣٧ : ٧) .

واستمر التزام أيضاً بين الأختين زوجتى يعقوب :

تزام فى إجاب البنين : من منهما تجب أكثر . حتى لهما أريدنا أن تحصلا على
بنين ينسب إليهما من كل من جاريتهما . ووصل هذا التزام إلى لون من الصراع .
حتى قالت راحيل فى ذلك "مصارعات الله قد صارعت مع أختى " (تك ٣٠ : ٨) .. بل
كان بينهما صراع آخر حول محبة يعقوب لأى منهما . حتى قالت لينة عندما ولدت
رأوبين "إنه الآن يحبنى رجلى" (تك ٢٩ : ٣٢) . وقالت أيضاً عندما حبلت بليتها لاوى "هذه
المرة يقترن بى رجلى ، لأنى ولدت له ثلاثة بنين" (تك ٢٩ : ٣٤) ...

يعقوب صار نسله شعباً ، وكذلك عيسو ...

وهنا نتذكر مرة أخرى قول الرب لرفقة "فى بطنك أمتان ، ومنك يفترق شعبان" .
حقاً ، يمكن أن يصير الإبن شعباً كما صار يعقوب وكما صار أخوه . بل قد يصير
الفرد الواحد شعبياً كثيرة ، وأبونا ابراهيم أبو الآباء هو مثال واضح لذلك . وينفس
الوضع نوح أبو البشرية كلها بعد الطوفان ...

ويوضح لنا هذا الأمر واجب الأبوين فى تربية أبنائهما . فكل ابن سيصير أسرة تنفرع
إلى أسرات ... وكذلك كل ابنة . كما قيل لرفقة أم يعقوب وهى ذاهبة لتتزوج لبينا اسحق :
"صيرى ألوف وربوات" (تك ٢٤ : ٦٠) .

غير أنه من جهة يعقوب وعيسو ، اختلف الأب والأم من جهتهما .

أحب اسحق عيسو ... وأما رفقة فكانت تحب يعقوب (تك ٢٥ : ٢٨) . ماذا كان أثر

ذلك فى حياة كل منهما ؟

يعقوبُ أبو الآباء في سعيه وراء البكورية والبركة

شهوة البكورية

كانت البكورية أمراً عظيماً جداً في زمن الآباء الأول ، تستحق أن تكون شهوة للأبناء .

فالبكر كان هو الذي يصير كاهناً للأسرة بعد أبيه ، قبل تأسيس الكهنوت الهاروني . بل إن الرب قال لموسى النبي فيما بعد " قَتَسْ لِي كُل بَكَر ، كُل فَاتِحَ رَحْم .. إِنَّهُ لِي " (خر ١٣ : ٢) . كما كان البكر في زمن آبائنا ابراهيم واسحق ، هو الذي سيأتي منه المسيح ، حسب وعد الرب لأبينا ابراهيم " ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض " (تك ٢٢ : ١٨) . ونفس هذه البركة أعطاها الرب لاسحق (تك ٢٦ : ٤) ...

سعى يعقوب إلى البكورية كان سعياً مقدساً . ولكنه لم يستخدم فيه أسلوباً روحياً ، بل أسلوباً انتهازياً .

استخدم يعقوب أسلوباً خالياً تماماً من المحبة الأخوية ، وخالياً من روح العطاء والبذل . وعجيبه هذه العلاقة بينه وبين عيسو . إنها أخوان . وليس فقط أخوين ، بل هما شقيقان ، بل هما توأمان . ولكن الموقف كانت تسوده بلاشك روح المصلحة الذاتية .

واستغل الشيطان الموقف فاستخدم وسيلتين متناقضتين :

فكان أسلوبه مع عيسو ، عكس أسلوبه مع يعقوب :

فبالنسبة إلى عيسو ، قال له الشيطان : بماذا تنفعك البكورية إن كنت على وشك الموت جوعاً وإعياء . وأطاع عيسو هذا الفكر فقال "أنا ماضٍ إلى الموت ، فلماذا لي بكورية؟" (تك ٢٥ : ٣٢) . أما بالنسبة إلى يعقوب ، فقال له الشيطان : أحرص على البكورية بكافة الطرق . خذها بأي ثمن ، ولو بطريقة استغلالية .. وقد كان .

لم يستطع يعقوب أن يحصل على البكورية عند الخروج من بطن أمه ، إذ سبقه عيسو .

لم يستطع يعقوب أن يحصل على البكورية عند الخروج من بطن أمه، إذ سبقه عيسو .
فتعقب عيسو ليأخذ منه هذه البكورية بعد خروجهما من بطن أمهما بسنوات طويلة .
نلاحظ أن البكورية قد تغيرت نعمها بعد يعقوب :

فبعده لم يعد البكر هو الذى يأتى من نسله المسيح . فبكر يعقوب هو رأوبين الذى لم
يأت السيد المسيح من نسله ، إنما أتى من نسل يهوذا ولم يكن هو البكر . كما أن الكهنوت
الهارونى جاء من نسل لاوى . ولم يكن لاوى هو البكر ...
لم يعد هناك داع بعد يعقوب وعيسو للصراع على البكورية . فحتى بالنسبة إلى يهوذا
الذى جاء السيد المسيح من نسله : جاء السيد المسيح من نسل داود . ولم يكن داود هو
البكر بين أبناء ييسى ، بل كان أصغرهم (اصم ١٦ : ١١) .
بقيت إذن البركة التى تصارع عليها يعقوب وعيسو ...

البركة

والبركة شئ مقدس . وينبغى أن يكون الحصول عليها بطريقة مقدسة ، وليس بأسلوب
الخداع والغش !!.. ولكن لعل يعقوب يعتذر بأن هذا الغش قد دفعته إليه أمه ، وطاعة الأم
أمر واجب! ولكننا نقول :

حدود طاعة الأم

ليس من الجائز إطاعة الأم بعصيان الله ...
نعم ، ليس من الجائز إطاعة الأم فى خطية ... فكل طاعة ينبغى أن تكون داخل
طاعة الله .. فإن أمرته أمه بذلك اللون من الكذب والخداع ، ما كان يجب عليه أن يطيع.
أما الذى جعله يطيع أمه ، فهو شهوة قلبه داخله !
هو كان يشتهى أن يحصل على بركة أبيه . فلما دفعته أمه فى تلك الوسيلة من الغش
والخداع ، تلقف نصيحتها كمعين له على تحقيق رغبته التى ظهرت من قبل فى موضوع
البكورية . فاستغلاله لجوع أخيه وشراء البكورية منه بأكلة عدس ، لم يكن ذلك بسبب
نصيحة من الأم ، بل كان عملاً تلقائياً لشهوته الداخلية .
كذلك كيف يطيع أمه بخداعه لأبيه !؟

هنا ونتعرض لمشكلة عائلية كانت قائمة : وهى اختلاف إتجاه كل من الأب والأم .

كان اسحق قديساً ، وكانت رفقة قديسة . ولكن مشاعرهما تجاه الإبنين كانت فى طريقين عكسيين . كان اسحق يحب عيسو ، ورفقة تحب يعقوب . فهل تسير البركة تبعاً لمشاعر الأب ، أم مشاعر الأم . وما السبب ؟

كان عيسو صياداً ، ومن صيده كان يأتى إلى فم أبيه بما يطعمه . وهنا يقول الكتاب "أحب اسحق عيسو، لأن فى فمه صيداً" (تك ٢٥: ٢٨) . وهكذا نجد اسحق يقول لعيسو "الآن خذ عندك، جعبتك وقوسك. وأخرج إلى البرية ، وتصيد لى صيداً . وأصنع لى أطعمة كما أحب، وأنتنى بها لأكل، حتى تباركك نفسى قبل أن أموت " (تك ٢٧: ٣، ٤).

أما يعقوب ، فكان ينطبق عليه المثل القائل إنه ابن أمه ...

كانت أمه تحبه .. لم يكن صياداً ، وإنما كان "يسكن الخيام" . يجلس إلى أمه ، ويتعلم منها طريقة الطبخ الجيد . وهو الذى قد طبخ العدس الأحمر الذى اشتهاه عيسو ، وبه باع له بكوريته (تك ٢٥: ٢٩ - ٣٤) .

وكان يعقوب يحب أمه ، ويسمع مشورتها ، وهى التى تدبر له حياته . إن نصحته أن يخدع أباه ، يخدعه . وإن قالت له اهرب إلى خالك لابان ، وأقم عنده حتى يرتد سخط أخيك (تك ٢٧: ٤٣، ٤٤) . فإنه يسمع نصيحتها ويطيعها . كما نقول له ، هكذا يفعل ... ومن هنا بدأت حيلة ، تدبرها رفقة ، وينفذها يعقوب .

عيسو يخرج ليصيد صيداً يأتى به إلى أبيه . ورفقة تدبر كيف تصيد البركة وتأتى بها إلى يعقوب ...

وكل من رفقة واسحق ، كانت له دوافعه الروحية :

بالنسبة إلى اسحق ، كان من الطبيعى أن تعطى البركة لعيسو ، لأنه الإبن الأكبر . وبالنسبة إلى رفقة ، يجب أن تعطى البركة ليعقوب لأنه هكذا قال لها الرب " من أحسانك يفتقر شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يستعبد لصغير " (تك ٢٥: ٣٣) . إذن ينبغى أن تكون السيادة ليعقوب الصغير ، حسب إرادة الله وتدبيره ، وإعلانه من قبل ولادتهما .

عيب رفقة الأساسى ، إنها لم تنتظر الرب ...

ظننت أن الرب قد تأخر ، فلجأت إلى الطرق البشرية ، لتحقيق بها الإرادة الإلهية !! كان يجب أن نتق بالله وصدق مواعيده ، ونتتظر الرب . ولكنها وجدت أن الساعة الحرجة قد حلت . واسحق أرسل عيسو ليحضر الصيد ويباركه . لذلك يجب أن نتصرف

بسرعة ...

هل كان الحل أن تذكرَ اسحق بكلمات الرب ، لكي يؤجل مباركته لعيسو ريثما يتضح الأمر بالأكثر ؟ .. إنها لم تفعل هكذا ... وبدأ ذكاؤها البشرى يتصرف . فرأت أن ينتحل يعقوب شخصية عيسو ، ويأخذ البركة من أبيه بأسلوب الخداع .. وبخطية فيها كذب وغش !

خداعه لأبيه

ويعقوب لم يكن رافضاً للخطية ، إنما كان متخوفاً من نتائجها ، ومن صعوبتها ومن إنكشافها !

لم يقل "كيف أفعل هذا الشر العظيم وأخطئ ؟" كما قال إنه يوسف بعد عشرات السنوات (تك ٣٩ : ٩) . إنما قال "عيسو أخى رجل أشعر ، وأنا رجل أملس . ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون ، وأجلب على نفسى لعنة لا بركة " (تك ٢٧ : ١١ ، ١٢) . هنا لا يرفض الخطية كخطية . إنما يتخوف من صعوبة تنفيذها ، ومن خطورة إنكشافها . فلما شرحت له أمه الوسيلة التى لا تجعله ينكشف ، وافق ، ونفذ ، وتقدم ليخدع أباه ... ما أصعب أن تأتى حرب الخطية من الخارج ، حين يكون القلب مشتاقاً إلى الخطية فى الداخل !!

وكما سمعت رفقة حديث اسحق مع عيسو ، وأخذت تتدبر الموقف ، كذلك سمع الشيطان حديثها مع يعقوب ، واقترب ليقدم لها الخطة المسيوكة ... "أخذت رفقة ثياب ابنها الأكبر التى كانت عندها فى البيت ، وألبستها ليعقوب . وألبست يديه وملاسه عنقه جلود جدى الماعز " ...

وكانت تعرف بالخبرة نوع الطعام الذى يحبه اسحق ، فصنعت ، وأعطته ليعقوب ليقدمه لأبيه ...

وتقدم يعقوب إلى أبيه ، وبدأ الموقف المخرج .

أسئلة سألها اسحق ، تدل على شك فى قلبه : تعجب أولاً كيف أتى هكذا مسرعاً . وأجاب يعقوب أن الرب إلهك قد يسرّ لى !! وقال اسحق : تقدّم لأجسك يا ابنى . أنت عيسو أم لا؟ وجسه وقال " الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو " ولم يعرفه لأن اليدين كانتا مشعرتين . وعاد ليسأل : هل أنت هو ابنى عيسو؟ فأجاب : أنا هو ...

لحظات حرجة جداً . وخطايا كذب كثيرة وقع فيها يعقوب . ومع ذلك فإن الله ستر ، ولم يكشفه ...

ما أعجب حنان الرب فى تلك اللحظات !! بينما كان يعقوب يغش ويخدع ويكذب ، وينتحل شخصية أخرى . ولا يحترم أباه الضرير ... ومع ذلك نرى ستر الرب عليه وهو فى عمق الخطية ، فلم ينكشف على الرغم من كل شكوك أبيه التى تدل عليها اسئلته ... وعلى الرغم من كل حرص اسحق ، فى أنه يجسه ويشمه ، ويبدى ملاحظته أن الصوت صوت يعقوب!! ربما ما كان يتصور ذلك البار أن إبنه يخدعه . وأخيراً باركه :

نوعية البركة

"فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض . وكثرة حنطة وخمر .. " .
إنه كلام جميل لنتأمله .. فليعطك من ندى السماء من فوق .. ومن دسم الأرض من تحت .. الخير يأتيك من فوق ومن تحت .. من السماء ومن الأرض .. من الله ومن البشر .. من الروح ومن المادة أينما سرت تجد خيراً ...
تصوروا الإنسان الذى يسير فى طريق الروح ...
إن ندى السماء بالنسبة إليه هو عمل النعمة فيه ...
ندى السماء هو صلوات الملائكة وتشفعاتهم .. ندى السماء هو مواهب الروح القدس التى يسكبها الله عليه من السماء . إنها زيارات النعمة .. عمل الله ..
ومن دسم الأرض .. الأرض هى الطبيعة البشرية ، لأن الله خلق الإنسان من دسم الأرض .. من تراب الأرض .. يعطيك الله من دسم الأرض ، أى أن عمل الروح الذى يعمل فيك ، يستجيب له إنسانك الداخلى أيضاً .. يعطيك محبة للتوبة وقبولاً للنعمة .. استسلاماً لعمل الروح القدس .. يعطيك رغبة فى الخير وحباً فى الله .
الأرض لا تتمرد عليك .. والسماء تحنو عليك ..
وبالنسبة لقايين وآدم كان عكسياً ، فبالنسبة لقايين قال الله .. عندما تعمل فى الأرض لا تعود تعطيك قوتها .. الأرض تتمرد عليك .. وبالنسبة لآدم قال ملعونة الأرض بسببك ، الأرض تثبت لك شوكة وحسكاً .
نحن نحتاج إلى بركة السماء وبركة الأرض .. نحتاج إلى عمل النعمة وإلى نقاوة طبيعتنا .. نحتاج إلى قوة من الروح القدس ، وإلى عدم مقاومة من المادة ..

يعطيك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض .. يعطيك الله من الخيرات الروحية والمادية أيضاً .. كل ما تعتمد إليه يدك ينجح .

الودعاء والمساكين بالروح، لهم ملكوت السموات، ويرثون الأرض .

مساكين الإنسان الذى لم يحصل على الأرض ولا على السماء .. تصوروا أنه عندما خرجت الكلمة من فم اسحق كانت كأنها أمر للسماء وأمر للأرض .. وضع اسحق يده على يعقوب وأمر صدر للسماء أن تنزل نداها عليه ، وأمر صدر للأرض أن تعطى دسمها لهذا الإنسان .. وحقاً كما قال السيد المسيح "وأعطيتكم مفاتيح السماء والأرض" .. هنا اسحق أخذ مفاتيح السماء والأرض ، يفتحها لتعطى نداها ودسمها وكلاهما فى طاعته .. أنه يمنح البركات كوكيل لله استؤمن على خيراته يوزعها كما يشاء .. إنها بركة عجيبة تعطى .

أما بالنسبة لعيسو فبلا دسم الأرض وبلا ندى السماء .. بالنسبة إليه عملية إغلاق ، لقد أعطى الله اسحق المفاتيح يفتح بها ويغلق، فى السماء والأرض .. إنها بركة الأبوة .. بركة وكيل الله الذى استؤمن على السماء والأرض .. ليعطيك الله ندى السماء ودسم الأرض وكثرة حنطة وخمر ...

إن الحنطة والخمر يرمزان إلى سر الإفخارستيا فى العهد الجديد .

وهكذا فإنه أعطاه خيرات العهد القديم وما فيها من رموز للعهد الجديد فى الحنطة والخمر اللذين يشيران أيضاً إلى كهنوت العهد الجديد .. وأبونا اسحق عندما تحدث عن هذه البركة فى حديثه مع عيسو ، قال عن يعقوب "وعضدته بحنطة وخمر " (تك ٢٧: ٣٧) .

وقال أبونا اسحق فى مباركته يعقوب أيضاً :

"ليستعبد لك شعوب ، ولتسجد لك قبائل " .

"كن سيداً لأخوتك ، وليسجد لك بنو أمك " .

إن الإنسان الذى يسير فى طريق الله يعطيه الله موهبة السيادة .. الله يعطى من سلطانه للناس .. عندما خلق آدم جعله سيداً على كل الكائنات الموجودة طيور السماء وحيوانات الأرض وسمك البحر .. جعله سيداً على الأرض .. وعندما أخطأ الإنسان بدأت السيادة تتزعزع ، وبدأت الكائنات تتمرد عليه .. الحية تلدغ عقبه ، والأرض تثبت شوكتها وحسكاً .. لقد تمردت الأرض والنبات .. السيادة ضاعت .. المرأة قال لها إن

الرجل يسود عليها .

فى يعقوب .. بدأت البركة تعود ثانية .. تستعيد لك شعوب، وتسجد لك قبائل .. كن سيداً لأخوتك، وليسجد لك بنو أمك " .

عجيب أن يسمح الله لإنسان أن يسجد له الناس .

يسجدون لوكيل الله على الأرض ، للشخص الذى يمثل الله ، أو يكون مسيحاً له . إنها موهبة السيادة أو كرامة يسبغها الله على أولاده . وأيضاً يقول له :
"ليكن لاعنوك ملعونين ، ومباركوك مباركين " .

من يلعنك ، ألعنه أنا . ومن يباركك أباركه . أنت سوف لا تدافع عن نفسك ، أنا سأدافع عنك .. أنت سوف لا ترد الإساءة بالإساءة ، لكننى أنا من السماء سأدافع عنك .. الذى يلعنك، تترد اللعنة إلى نفسه .. والذى يباركك، يأخذ البركة لنفسه ويصير مباركاً .

حماية من الله عجيبة لكل واحد من أولاده ... يقف بجواره ، يدافع عنه ويعمل من أجله كل شئ حتى لو كان صامتاً .. يقاتل عنكم وأنتم تصمتون (خر ١٤ : ١٤) .

إنها عبارات معزية سمعها يعقوب الضعيف المسكين الخائف من عيسو الجبار الصياد.. كان يعقوب راکعاً عند قدمى أبيه ، وكانت السماء فاتحة أبوابها والنعم تنزل على رأسه أمانة صادقة من فم أبيه ومن عند الله نفسه .

يعقوبُ أبوالآباء ومتاعبُ بعد البركة

البركة

استطاع يعقوب أن يحصل على بركة أبيه . وكانت بركة الآباء كنزاً عظيماً يسعى إليه الأبناء ...

البركة في تاريخ البشرية صدرت من الله مباشرة ، ومن الله وحده . كما بارك الله آدم وحواء (تك ١ : ٢٨) . وكما بارك نوحاً وبنيه (تك ٩ : ١) . وكما بارك أيضاً أبانا ابراهيم (تك ١٢) . وهو أول إنسان قال له الله " وتكون بركة " (تك ١٢ : ٢) . وهكذا صار الآباء مصدراً للبركة ...

لم يكونوا بالنسبة إلى أبنائهم مجرد آباء جسديين ، بل كانوا لهم آباء روحيين أيضاً . في ذلك الزمان كان الكهنوت للأب رئيس العائلة . وهكذا كان أبونا نوح يقدم محرقات للرب (تك ٨ : ٢٠) . وأبونا ابراهيم كان كذلك : بنى مذبح ودعا باسم الرب (تك ١٢ : ٧ ، ٨) . واسحق أيضاً بنى مذبحاً ودعا باسم الرب (تك ٢٦ : ٢٥) .

كان هؤلاء الآباء كهنة يقدمون على المذابح محرقات . وكانت في أيديهم البركة واللعنة .

من يباركونه يصبح مباركاً . ومن يلعنونه يصبح ملعوناً ، كما فعل أبونا نوح (تك ٩ : ٢٥ - ٢٧) لعن كنعان فصار كذلك .

لم يكن اسحق إذن مجرد أب جسدى لعيسو ويعقوب . بل كان أيضاً أباً روحياً لهما ، كاهناً له سلطان ، ويمكن أن يمنح البركة . كان وكيلاً لله على الأرض . وكل منهما كان بكل قوته يسعى لنوال بركته ...

يعقوب سعى إلى البركة بطريقة للفش والخداع .

لقد أطاع نصيحة أمه . وفى الواقع لقد أطاع شهوات قلبه التى كانت تتفق مع هذه النصيحة . والعجيب أن أمه لم تقدم له حيلتها كنصحية ، بل كأمر . وهكذا قالت له : "الآن يا ابنى، اسمع لقولى فى ما أنا أمرك به" (تك ٢٧: ٨) . ويعقوب لم يرفض . لم يقل لها فى حزم "لا أقدر أن أخدع أبى ، محتقراً عسى بصره " . بل إنه كان يخشى فقط إنكشاف الخدعة . ولم يكن يعقوب جريئاً وشجاعاً مثل سليمان الذى رفض طلب أمه فى أن تعطى أبيشج الشونمية امرأة أبيه زوجة لأدونيا أخيه ، بل أمر بقتل أدونيا الذى توسطت له أمه ، عقاباً له على جرأته فى أن يطلب امرأة أبيه زوجة له (١مل ٢: ١٧-٢٥) . وهكذا لم يطاوع سليمان أمه ، محترماً أباه حتى بعد موته .

أما يعقوب فتقدم ليخدع أباه ، مرتكباً خطايا عديدة ...

قال له " أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلمتني . قم أجلس وكل من صيدى ، لكى تباركنى " (تك ٢٧: ١٩) . كم كذبة كذبها يعقوب فى هذه العبارة ؟ لا هو عيسو البكر ، ولا أبوه كلمه عن صنع أطعمة له ، ولا هو اصطاد شيئاً .. ولما تعجب أبوه من السرعة فى الصيد وإعداد الطعام ، أجابه يعقوب "الرب إلهك يسرّ لى" !!
كل هذا أدخل الشك فى نفس اسحق .

وبخاصة لأن "الصوت صوت يعقوب " . فقال له "تقدم لأجستك يا ابنى. أنت هو إينسى عيسو أم لا". وعاد اسحق يسأله مرة أخرى "هل أنت هو إينسى عيسو؟" فقال "أنا هو" (تك ٢٧: ٢١، ٢٤) . ولم يكتف اسحق بهذا ، بل أمره أن يتقدم ، وشم رائحة ثيابه .. إنها ثياب عيسو التى ألبستها رفقة لإينها يعقوب .. إن رفقة كانت ذكية . فلم تطبخ الطعام فقط لاسحق ، بل طبخت العملية كلها . كانت رواية :أنفها للشيطان ، وأخرجتها رفقة ، ومثلها يعقوب ، وخدع بها أباه .

هل كان قلبه مضطرباً وخائفاً خلال ذلك ؟

خلال أسئلة أبيه المتكررة المرتابة ، وهو يجسه ويشمه ، ويقول له : هل أنت هو؟ .. عجباً إن هذا الضعيف كانت له وقتذاك قوة ، أمكنه بها أن يصمد وأن يجيب، وأن يحتمل شك أبيه . بل أن يقبل أباه فيما كان يخدعه (تك ٢٧: ٢٦، ٢٧) .

يعقوب أبوالآباء وعهد مع الله في بيت إيل

دخل يعقوب في عهد مع الله ... وفي الكتاب المقدس ما أكثر العهود التي نراها بين الله والإنسان .

وهنا نرى العهد يقول فيه الله ليعقوب "نسلك يكون كتراب الأرض . ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض . وما أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض " (تك ٢٨ : ١٣ - ١٥) .

ومن جانب يعقوب نذر نذراً ، بشروط ...

وفي هذا يسجل الكتاب " ونذر يعقوب نذراً قائلاً : إن كان الله معي ، وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه ، وأعطاني خبزاً لأكل وثياباً لألبس ، ورجعت بسلام إلى بيت أبي ، يكون الرب لي إلهاً ، وهذا الحجر الذي أقمته يكون بيت الله ، وكل ما تعطيني فأبني أعشره لك " (تك ٢٨ : ٢٠ - ٢٢) .

الله قدم هنا وعوداً بلا شروط ، ويعقوب قدم نذراً لله بشروط .

ولعل سبب شروط يعقوب ، أنه لم يكن قد دخل في عمق الإيمان بعد . إنه الآن في بدء علاقته الشخصية مع الله ، ويريد أن يتحقق من وعود الله له !!

هوذا الله يقول له " ها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب " . وهو يقول في شروطه " إن كان الله معي ، وحفظني في الطريق الذي أنا سائر فيه " .. والله يقول له " وأردك إلى هذه الأرض " . وهو يقول : " إن رجعت بسلام إلى بيت أبي " ...

ومع ذلك كان نذر يعقوب هو أول نذر سجله الكتاب المقدس .

إنها أول مرة نقرأ فيها في الكتاب كلمة (نذر) ...

وكان نذراً مثلثاً : أن يكون الرب له إلهاً ، أن يقيم بيتاً لله ، أن يعشر كل ما يعطيه له الله ...

فارتعد اسحق إرتعاداً عظيماً جداً " (تك ٢٧: ٣٣) .

اكتشف أنه وقع في خدعة ، وأن يعقوب "أتى بمكر وأخذ البركة " ... ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا؟! هل من المعقول أن يسمح الله بأن تعطى البركة لمن لا يستحقها؟! وهل ستثبت البركة التي أخذها يعقوب ؟ طبعاً سوف تثبت . ولكن كيف ؟!

وهنا بدأ ذهن اسحق بجول في أعماق بعيدة ... وبقيناً أنه تذكر في تلك اللحظات الكلام الذي قاله الله لرفقة في وقت حبلى " في بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفرق شعبان . شعب يقوى على شعب . وكبير يستعبد لصغير " (تك ٢٥: ٢٣) .

كان قد نسى هذه النبوءة في شيخوخته .. وعاد ليتذكرها الآن .. إن فقد كان على وشك أن يعطى البركة ليعسو . ولكن الله صحح له هذا الخطأ ، ولم يسمح لاسحق أن يقع فيه . فالبركة هي ليعقوب . هنا وقال اسحق " نعم ، ويكون مباركاً " (تك ٢٧: ٣٣) .

وهنا أيضاً نضع أمامنا حقيقة هامة وهى :

أَخْطَاء عيسو

إن عيسو لم يكن أميناً لنفسه ، ولا لأخيه ، ولا لله :

لم يكن أميناً لنفسه ، لأنه باع بكريته .. وباعها بثمن رخيص ، بأكلة عدس (تك ٢٥: ٣٢) . وهكذا باع الروحانيات ، وأخذ بدلاً منها الماديات "واحتقر البكورية" !
وعندما باع البكورية ، لم يكن أميناً لله .

ذلك لأن البكورية وقتذاك كانت تحمل فى بركاتنا الكهنوت ، أى خدمة الله ومذبحه . بل كانت تحمل شيئاً أهم ، وهو أنه من نسل هذا البكر سيأتى المسيح ، وينسله تتبارك جميع قبائل الأرض ... فكيف باع كل هذا بأكلة عدس ؟!

ولم يكن عيسو أميناً لأخيه أيضاً ...

إذ كيف ينقض اتفاقاته معه . كيف بعد أن باع البكورية ، يأتى إلى أبيه ويقول له "أنا برك عيسو" (تك ٢٧: ٣٢) ؟! ويطالب ببركة هذه البكورية ! أما كان الأجدر أن يقول لأبيه : لست أستحق هذه البكورية ، لأنى بعته .

وهو لم يبع البكورية فقط ، وإنما حلف لأخيه على ذلك (تك ٢٥: ٣٣) . أى أشهد الله على ذلك . لذلك فهو يطالب بحق ليس له ...

فلما سمع أن أباه بارك أخاه يعقوب يقول الكتاب :

إن عيسو صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً ، وبكى ...

وقال : أما أبقيت لى بركة ١؟ " ألك بركة واحدة فقط يا أبى . باركنى أنا أيضاً يا أبى " .. ورفع صوته وبكى (تك ٢٧ : ٣٤ ، ٣٨) .

ويجيئه أبوه : ماذا أصنع لك يا إبني ١؟ جاء أخوك وأخذ البركة . قد جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع أخوته عبيداً ، وعضدته بحنطة وخمر (تك ٢٧ : ٣٧) ... ولم يكن اسحق قاسياً أمام دموع إبنه عيسو ...
إنما لقد أخطأ عيسو فهم البركة والبكورية .

أهم ما فيها أن يأتى المسيح من نسل من ينال هذه البركة . فمادامت البركة قد أعطيت ليعقوب ، وصار له أن يأتى المسيح من نسله ، فلا يمكن أن يأتى إذن من نسل عيسو .. ما معنى إذن : ألك بركة واحدة فقط يا أبى ١؟ هل من المعقول أن يعطى نفس البركة لعيسو ، فيأتى المسيح من نسل يعقوب ومن نسل عيسو ١؟ وهذا محال ..
لم يكن تفكير عيسو هنا تفكيراً روحياً . وكان الأجدر به أن يذهب إلى أخيه يعقوب ويسجد أمامه ، ويطلب بركته ، وليس بركة البكورية . ولكنه صرخ صرخة مرة وبكى ، حيث لا ينفع البكاء ...

وصدق فى عيسو ، ما قاله عنه القديس بولس الرسول :

قال إنه " لما أراد أن يرث البركة رفض ، إذ لم يجد للتوبة مكاناً ، مع أنه طلبها بدموع " (عب ١٢ : ١٧) .

لقد جاء بعد فوات الفرصة ، بعد أن أغلق الباب ، مثل الخمس العذارى الجاهلات ، اللاتى قلن " يا ربنا يا ربنا ، افتح لنا " فأجابهن الرب " الحق أقول لكن إنى لا أعرفكن " (مت ٢٥ : ١٠ - ١٢) .

لم يكن بكاء عيسو بكاء توبة . إنما كان بكاء حسرة وغيظ وحقد .

بكاء من فقد شيئاً لا يمكن أن يرجع . بكاء ليس فيه تنلل ولا انسحاق .. بل يقول الكتاب عن هذا الباكي " فحقد عيسو على يعقوب ، من أجل البركة التى باركه بها أبوه . وقال عيسو فى قلبه : قربت أيام مناحة أبى . فأقتل يعقوب أخى " (تك ٢٧ : ٤١) . وطبيعى أن الذى يحقد على أخيه ، ويفكر فى قتله ، لا يمكن أن يكون إنساناً تائباً .

لقد بكى وطلب من أبيه بركة . فقال له أبوه " هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك ، وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش ، ولأخيك تستعبد ولكن يكون حينما تجمع ،

أنك تكسر نيره عن عنقك " (تك ٢٧: ٣٩ ، ٤٠) . وكان مشاعر عيسو الحاقده تقول :
 بسيفى أعيش ؟ ليكن . ولكن بسيفى لن أجعله يعيش .. أقوم وأقتل يعقوب أخى ...
 إن كانت النتيجة الأولى فى خداع يعقوب لأبيه ، هى إنكشاف الخدعة بعودة عيسو من
 صيده ، فإن النتيجة الثانية كانت عزم عيسو على قتله . ونتيجة لذلك إن رفقة نصحته
 بالهروب من أخيه قائلة له : "الآن يا ابنى ، اسمع لقولى . وقم أهرب إلى أخى لابان ، إلى
 حاران ... حتى يرتد سخط أخيك عنك ، وينسى ما صنعت به .. لماذا أعدم إثنيكما فى
 يوم واحد؟" (تك ٢٧: ٤٢ - ٤٥) .

إلى بيت لابان

وكانت رفقة امرأة ذكية . فأقنعت اسحق بذلك ...
 أقنعت بذهاب يعقوب ليقيم عند أخيها لابان فى حاران . فكيف فعلت ذلك ؟
 كان عيسو قد اتخذ لنفسه زوجتين من بنات الحيثيين " فكانتا مرارة نفس لاسحق
 ورفقة " (تك ٢٦: ٣٤ ، ٣٥) . فضربت رفقة على هذا الوتر ، وقالت لزوجها اسحق
 "ملت حياتى بسبب بنات حث . إن كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حث ، مثل هؤلاء من
 بنات الأرض ، فلماذا لى حياة ؟" (تك ٢٧: ٤٦) .
 ومال اسحق إلى كلام رفقة ، ودعا يعقوب وباركه ، وقال له نفس النصيحة : قم
 اذهب إلى فدان آرام ، إلى بيت بتوئيل أبى أمك ، وخذ لنفسك زوجة من هناك ، من بنات
 لابان أخى أمك .. لا تأخذ لك زوجة من بنات كنعان " (تك ٢٨: ١ ، ٢) .
 وهنا نرى اسحق يبارك يعقوب بركة ثانية ، من قلبه ، وليس كالأولى التى كانت
 بالخدعة ...

لم يلمه على خدعته ، ولم يعاقبه على أخذه البركة بالمكر ، لأنه تذكر الوعد الإلهى .
 بل دعاه وباركه ... وقال له "الله القدير يباركك ، ويجعلك مثمراً" .. ويعطيك بركة
 إبراهيم لك ولنسلك .." (تك ٢٨: ١ ، ٣ ، ٤) .

ومضى يعقوب هارباً من وجه أخيه ، بعيداً عن بيت أبيه وعن حنان أمه . فماذا حدث

له ؟

يعقوبُ أبوالآباء هَارِبٌ وخَائِفٌ، ولكن الله معه

حقّد عيسو وجهله

خرج يعقوب من بيت أبيه ، هارباً من وجه أخيه عيسو ، الذى عزم على قتله . وقد أوصله الحقّد إلى هذا المستوى "أقوم وأقتل يعقوب أخى" .

عجيب هو حقّد عيسو ، وعجيب أيضاً جهله ...

إن كان يعقوب قد أخذ البركة ، فكيف يمكن لعيسو أن يتحدّى هذه البركة ويمنع نفاذها؟! البركة التى تقول "كن سيداً لأخوتك، وليسجد لك بنو أمك . ليستعبد لك شعوب، ولتسجد لك قبائل " (تك ٢٧: ٢٩) . هل يمنع عيسو إتمام هذه النبوة؟! وهل يمنع إتمام القول الإلهى عنه وعن أخيه " وكبير يستعبد لصغير " (تك ٢٥: ٢٣) .

كان عيسو يتحدّى التدبير الإلهى ، بعكس أبيه .

لقد كان فى نية أبيه أن يبارك عيسو . ولكنه استسلم لمشينة الله ، لما تذكر وعده . وعاد اسحق فبارك يعقوب ، وقال "نعم ويكون مباركاً" (تك ٢٧: ٣٣) أما عيسو، فقد تمرد على مشينة الله . ودلّ بذلك على جهله أيضاً . لأنه إن كان من ضمن البركة التى أخذها يعقوب ، أن يأتى من نسله المسيح ، فكيف يستطيع عيسو أن يقتله قبل أن ينجب النسل الذى منه يأتى المسيح؟!

بل كيف يقف عيسو ضد بركة أخرى قالها أبوه اسحق ليعقوب "الله القدير يباركك ويجعلك مثمراً ، ويكثرُك فتكون جمهوراً من الشعوب " (تك ٢٨: ٣) . فهل يموت يعقوب، قبل أن يثمر؟! ولكن على الرغم من جهالة عيسو وتمرده على التدبير الإلهى ، هرب يعقوب من وجهه ...

سار فى البرية وحيداً خائفاً ، ينتظر وعود الرب .

وهو باستمرار كان يخاف من عيسو ، رجل الصيد والنبال ، الذى كان أقوى منه جسدياً حتى وهما فى بطن أمهما : ركنه عيسو جانباً ، وخرج قبله "أحمر كله كفروة شعر" (تك ٢٥: ٢٥) .

وتزاحم الإثنان أيضاً حول البكورية والبركة . فلما كانت من نصيب عيسو ، دخلت مشاعر الإنتقام فى قلب عيسو ، كما دخل الخوف من الإنتقام فى قلب يعقوب . وهرب وهو لا يدري هل ستتتصر بركة اسحق أم فقد عيسو .. !

وقت الرحمة لا العقوبة

وعلى الرغم من أخطاء يعقوب فى حصوله على البركة ، إلا أن الله لم يعاقبه فى وقتها ...

ليس من المعقول أن يعاقبه الله وهو فى هربه وخوفه . يكفيه حالياً ما هو فيه . العقوبة سوف تحل عليه فيما بعد . أما الآن فهو فى حاجة إلى عناية الله ورعايته ، وليس الوقت وقت عدل الله وعقوبته . إن الله يكون دائماً إلى جوار الضعفاء المحتاجين إليه . لعله باهتمامه بهم فى ضيقهم ، يمكن أن يجذبهم إليه .. صدق داود النبى حينما قال :
" أقع فى يد الله ، ولا أقع فى يد إنسان ، لأن مراحم الله واسعة " (٢صم ٢٤: ١٤) .
فليقع يعقوب إذن فى يد الله ، يعاقبه كما يشاء ، ومتى يشاء . ولا يقع فى يد أخيه عيسو ... وهكذا سار يعقوب فى البرية وحيداً وخائفاً ، وبلا أية معونة .. بلا رعاية الأب، ولا حنان الأم ، وليس أمامه مجال لاستخدام ذكائه البشرى .
رأه الله فى خوفه وهربه . وكان الله يقول :

لا أترك يعقوب ابنى وحده . لا أتركه معذباً وقتلاً ...

حقاً أنه تسبب فى هذا الهرب الذى جلبه على نفسه .. ولكن الله لا يتركه ليقاسى بسبب أعماله .. الله "الذى لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا " (مز ١٠٣: ١٠) . ودبر الله الوقت الذى يعمل فيه .

هوذا يعقوب الآن فى البرية ، فى وحشة النهار وظلمة الليل ، وخوف الجبل وما فيه من وحوش ودبيب وحشرات . يضاف إلى ذلك خوفه من انتقام أخيه . ولعله يفكر : أين إذن البركة التى نالها : " ندى السماء ، ودمس الأرض " (تك ٢٧: ٨) !!

حقاً إن البركة ليس معناها الطريق الواسع .. ؟

لقد حصل داود النبي على بركة المسحة المقدسة التي أخذها على يد صموئيل النبي ، وحلّ عليه روح الرب (اصم ١٦ : ١٣) . وعلى الرغم من ذلك حلّت ضيقات كثيرة على داود ، واضطهادات ومطاردات من شاول الملك ... وفي الوقت المناسب ، نال داود بركة المسحة المقدسة . إذن على يعقوب أن ينتظر الرب ، الذي يعمل في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة لتبويره الإلهي .

كان على يعقوب أن يجتاز مرحلة فطام .

فطام عن كل معونة بشرية . وأولها الفطام من حنان أمه وإرشادها.. هذه التي قالت له أكثر من مرة " الآن يا ابني اسمع لقولي " (تك ٢٧ : ٨ ، ١٣) .. قالت له ذلك عندما نصحته أن يخدع أباه . وأيضاً حينما نصحته أن يهرب ويقيم عند خاله لابان (تك ٢٧ : ٤٣) ..

وكان عليه أيضاً أن يطمّ ذاته عن حيله البشرية . ويكون في موقف يشعر فيه أنه لا حلّ أمامه ولا وسيلة . وحينئذ يتدخل الله لينقذه من ضيقته ... وفي الضيقة لمس يعقوب عملياً يد الله في حياته .

لَمَّاؤَهُ مَعَ اللَّهِ

كان من قبل لا يعرف عن الله ، إلا أنه إله أبيه اسحق وإله جده ابراهيم ، هذين اللذين كانا يقدمان له الذبائح . وحتى حينما كلمه الله ، كلمه بهذه الصفة قائلاً له " أنا الرب إله ابراهيم أبيك وإله اسحق " (تك ٢٨ : ١٣) . وهكذا بدأ الله يكون علاقة شخصية معه ..

وكان الله هو البادئ بهذه العلاقة . فكيف حدث ذلك ؟ حدث ذلك في البرية ، حينما تعب يعقوب من السير ، وكانت الشمس قد غابت . " وصادف مكاناً وبات هناك " . لم يكن هناك فراش ، ولا وسادة يسند عليها رأسه . " فأخذ حجراً من حجارة المكان ، ووضعها تحت رأسه . واضطجع في ذلك المكان " (تك ٢٨ : ١٠ ، ١١) .

وهنا بدأ الله يعمل . بدأ يكون علاقة مع يعقوب ...

لم يحتمل أن يراه هكذا ملقى على الأرض ومتوسداً حجراً .. ربما يعقوب كان يظن وقتذاك أنه وحده في الجبل . فاراد الله أن يثبت له أنه ليس وحده . وأنه وإن كان راقداً على الأرض ، فهناك ما يمكن أن يصل بين الأرض والسماء .. وكيف ذلك ؟ إذا بيعقوب في نومه يرى حلمًا عجيباً ...

سَلَم يَعْقُوبَ

رأى سَلَمًا منصوبة على الأرض ، ورأسها يمس السماء . وهذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . وهذا الرب واقف عليها يخاطبه . يعرقه بنفسه ويباركه ..
وكان هذا هو اللقاء الأول بينه وبين الله ، حيث أعلن له الله ذاته ، وأعقبت ذلك لقاءات أخرى ...

وبعد أن كان يعقوب مؤمناً بالوراثة .. أصبح مؤمناً بالعشرة والخبرة .
كان مؤمناً ، لأنه ابن اسحق المؤمن . إلهه هو إله اسحق . أما الآن فقد دخل في طور آخر من الإيمان . يتحدث فيه الله إليه ، ويتحدث هو مع الله . وبعد أن كان قد أخذ البركة من أبيه اسحق ، هوذا الآن يسمعها من فم الله ذاته ، الذي قال له " يكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً .. ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض " (تك ٢٨ : ١٤) . بل إن الله يعطيه أيضاً وعداً آخر بالحفظ ، فيقول له " وما أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض .. " (تك ٢٨ : ١٥) . فما هذا كله : إنه الآن أمام الله ، وملائكته ، وسمائه ...

ثلاثة تمثل حياته الروحية الجديدة . ومن قبل كان يتعامل مع ثلاثة هم أب وأم وأخ . لقد دخل تغيير إذن في حياته . فصل جديد قد بدأ ..

وقد ترك هذا المنظر "السلم والسماء والملائكة" أثراً كبيراً في نفس يعقوب . وأعماق منه بلا شك حديث الله معه . فلما استيقظ من نومه ، قال : ما أرهب هذا المكان . ما هذا إلا بيت الله ، وهذا باب السماء " (تك ٢٨ : ١٧) .

ولأول مرة ، يرد في الكتاب المقدس هذا التعبير "بيت الله" . وقد تسمى به ذلك المكان ، فصار اسمه "بيت إيل" أي بيت الله ...

ولأول مرة أيضاً نقرأ في الكتاب عن ملائكة ظهوروا لإنسان . وتكرر هذا في حياة يعقوب .

قرأنا من قبل إن الرب ظهر مع ملاكين لأبينا إبراهيم ، وعن ذهاب الملاكين إلى سادوم وانقاذهما للوط واسرته (تك ١٨ ، ١٩) . وقرأنا عن ملاك منع أبينا إبراهيم من ذبح ابنه اسحق (تك ٢٢ : ١١ ، ١٢) . ولكننا هنا نقرأ عن ملائكة صاعدين ونازلين ...
كان يعقوب أول إنسان رأى مجموعة من الملائكة . ربما أن حالته النفسية القلقة ،

كان فيها يحتاج إلى الشعور بأن له أسرة كبيرة من فوق ينتقل بها إلى عالم سمائي ...
كذلك وهو ذاهب في طريقه خائفاً من ملاقة عيسو ، لاقاه عدد كبير من الملائكة قال
عنهم : " هذا جيش الله " (تك ٣٢ : ١ ، ٢) .. في كل رحلة يعقوب ذهاباً وإياباً ، كان
محتاجاً إلى عزاء . وكان في ظهور الملائكة عزاء له ...
وأيضاً كان له عزاء في السلم التي رآها ...

كانت السلم بين السماء والأرض ، توحى بأن السماء لا تقطع صلتها بالأرض، مهما
أخرجت الأرض شوكة وحسكاً ...! كانت ترمز إلى المصالحة ، وعودة الحب . بل ترمز
أيضاً إلى السيد المسيح الذي قام بهذه المصالحة ، وأعلن للأرض حب السماء . وكانت
ترمز كذلك إلى أمانا العذراء التي ولدت للعالم هذا المخلص . لهذا ندعو العذراء في
صلوات التسبحة "سلم يعقوب" ...

على أن يعقوب فيما رأى كان له عزاء أعظم من السلم ومن الملائكة ومن السماء :
إنه الله ...

كان الله واقفاً على السلم يتحدث إليه (يع ٢٨ : ١٣) .

حقاً إن الله عجيب في ظهوره ليعقوب على الرغم من خداعه لأبيه، واستغلاله لجوع
أخيه . وعلى الرغم من كذبه وحيله . وعجيب هو الرب بالأكثر في كل وعوده ليعقوب،
ومباركته له ولنسله . وهكذا أكد الله ليعقوب البركة التي سمعها مرتين من أبيه اسحق
(تك ٢٧ : ٢٧) (تك ٢٨ : ١) . فيكون قد نال حتى تلك اللحظة البركة ثلاث مرات ...

حقاً إن بركات الله بلا حساب ، ونالها بلا استحقاق !

" لأنه ليس بكيل يعطي الله " (يو ٣ : ٣٤) . وإن كال لنا فإنما يعطي في أحضاننا "كيلاً
جيداً ، ملبداً ، مهزوزاً فائضاً .. " (لو ٦ : ٣٨) . وهو في عطائه ، ينظر دوماً إلى
احتياجنا، وليس إلى استحقاقنا .. وهكذا فعل مع يعقوب الخائف الهارب . لقد أعطاه الله
بركة ووعوداً ، وليس عقوبة وتأديباً ...

وكان لهذا كله تأثيره في قلب يعقوب ، فقال :

"حقاً إن الله في هذا المكان ، وأنا لم أعلم " (تك ٢٨ : ١٦) .

قال الله له " أنا معك حيثما تذهب " . ولكنه لم يكن يعلم أن الله معه . وما أكثر ما
يكون الله معنا ، ونحن لا نعلم ..! مثلما حدث للتلميذ عمواس في لقاء الرب لهما
(لو ٢٤ : ١٥ ، ١٦) . وكثيراً ما يكون الله معنا ، ولكن الضيقات لا تتركنا نشعر بوجوده .

كما قال جدعون لملاك الرب "إذا كان الرب معنا، فلماذا كل هذه؟! وأين هي عجائبه التي أخبرنا بها آبائنا؟" (قض: ٦: ١٣) ... هكذا كان يعقوب لا يعلم بوجود الرب معه...! كان هذا أول ظهور إلهي له ، وكان ما سمعه من الرب أول كلمات من الله تمس أذنيه .

لقد شعر كيف يكون الرب قريباً في وقت الضيقة ... لذلك مباركة هي الضيقات حينما تقربنا إلى الله . ولهذا فإن الله يسمح بالضيقات ، لكي ندعوه فينقذنا . على أنه هنا لم يحدث أن يعقوب دعاه . إنما لاشك أن احتياج يعقوب كان يصرخ إلى الله دون أن يتكلم.. كما قال الرب لموسى "إني رأيت مذلة شعبي .. علمت أوجاعهم . فنزلت لأنقذهم " (خر: ٣: ٧ ، ٨) . مع أنهم لم يصرخوا إليه ، بل صرخوا بسبب مسخريهم ..

"الله هنا ، وأنا لم أكن أعلم" . وكيف عرفت إذن ؟ بالضيقة .

لا تحزن يا يعقوب إذا فكر عيسو في أن يقتلك .. ثق أن حياتك في يد الله ، وليست في يد عيسو . إذن لا تركّز فكرك في أخطار تهددك من أخيك، إنما فكّر في الله . فكّر في باب السماء المفتوح .. ولتكن كلمة الله في أذنك " ها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب" . وماذا عن عيسو وقوته وتهديده، والقتل والموت ؟ لا تفكر في كل هذا ..

لقد اطمأن يعقوب لما سمع وعود الرب.

ونذر يعقوب نذراً إن كان الرب معه وحفظه ...

كان وعد الله له في حلم . وهو لا يريد أن يكون حفظ الله هو مجرد أحلام يحلمها وعود يسمعها في حلم ... إنما متى تحققت " يكون الرب لى إلهاً .. وكل ما تعطيني فأني أعشره لك " . ابراهيم جده قدّم العشور مرة لملكى صادق (تك: ١٤: ٢٠) . أما يعقوب حفيده فيقول للرب :

" كل ما تعطيني ، فأني أعشره لك " (تك: ٢٨: ٢٢) .

ليكن هذا درساً لكل إنسان ... فلا يدفع العشور من مرتبه فقط ، وإنما من كل ما يصل إلى يده ، عملاً بقول إيلينا يعقوب : كل ما تعطيني فأني أعشره لك ... وصية العشور أخذها - بالتقليد - من جده ابراهيم ، وطبقها على كل شيء ، كتعبير في العرفان بالجميل للرب .

ولكى لا ينسى ظهور الرب له في ذلك المكان ، دشّنه بيتاً للرب .

يعقوب أبوالآباء وعهد مع الله في بيت إيل

دخل يعقوب في عهد مع الله ... وفي الكتاب المقدس ما أكثر العهود التي نراها بين الله والإنسان .

وهنا نرى العهد يقول فيه الله ليعقوب "نسلك يكون كتراب الأرض . ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض . وما أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض " (تك ٢٨ : ١٣ - ١٥) .

ومن جانب يعقوب نذر نذراً ، بشروط ...

وفي هذا يسجل الكتاب " ونذر يعقوب نذراً قائلاً : إن كان الله معي ، وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه ، وأعطاني خبزاً لأكل وثياباً لألبس ، ورجعت بسلام إلى بيت أبي ، يكون الرب لي إلهاً ، وهذا الحجر الذي أقمته يكون بيت الله ، وكل ما تعطيني فأبني أعشره لك " (تك ٢٨ : ٢٠ - ٢٢) .

الله قدم هنا وعوداً بلا شروط ، ويعقوب قدم نذراً لله بشروط .

ولعل سبب شروط يعقوب ، أنه لم يكن قد دخل في عمق الإيمان بعد . إنه الآن في بدء علاقته الشخصية مع الله ، ويريد أن يتحقق من وعود الله له !!

هوذا الله يقول له " ها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب " . وهو يقول في شروطه " إن كان الله معي ، وحفظني في الطريق الذي أنا سائر فيه " .. والله يقول له " وأردك إلى هذه الأرض " . وهو يقول : " إن رجعت بسلام إلى بيت أبي " ...

ومع ذلك كان نذر يعقوب هو أول نذر سجله الكتاب المقدس .

إنها أول مرة نقرأ فيها في الكتاب كلمة (نذر) ...

وكان نذراً مثلثاً : أن يكون الرب له إلهاً ، أن يقيم بيتاً لله ، أن يعشر كل ما يعطيه له الله ...

يعقوب أبوالآباء وعهد مع الله في بيت إيل

دخل يعقوب في عهد مع الله ... وفي الكتاب المقدس ما أكثر العهود التي نراها بين الله والإنسان .

وهنا نرى العهد يقول فيه الله ليعقوب "نسلك يكون كتراب الأرض . ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض . وما أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض " (تك ٢٨ : ١٣ - ١٥) .

ومن جانب يعقوب نذر نذراً ، بشروط ...

وفي هذا يسجل الكتاب " ونذر يعقوب نذراً قائلاً : إن كان الله معي ، وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه ، وأعطاني خبزاً لأكل وثياباً لأكس ، ورجعت بسلام إلى بيت أبي ، يكون الرب لي إلهاً ، وهذا الحجر الذي أقمته يكون بيت الله ، وكل ما تعطيني فأبني أعشره لك " (تك ٢٨ : ٢٠ - ٢٢) .

الله قدم هنا وعوداً بلا شروط ، ويعقوب قدم نذراً لله بشروط .

ولعل سبب شروط يعقوب ، أنه لم يكن قد دخل في عمق الإيمان بعد . إنه الآن في بدء علاقته الشخصية مع الله ، ويريد أن يتحقق من وعود الله له !!

هوذا الله يقول له " ها أنا معك ، وأحفظك حيثما تذهب " . وهو يقول في شروطه " إن كان الله معي ، وحفظني في الطريق الذي أنا سائر فيه " .. والله يقول له " وأردك إلى هذه الأرض " . وهو يقول : " إن رجعت بسلام إلى بيت أبي " ...

ومع ذلك كان نذر يعقوب هو أول نذر سجله الكتاب المقدس .

إنها أول مرة نقرأ فيها في الكتاب كلمة (نذر) ...

وكان نذراً مثلثاً : أن يكون الرب له إلهاً ، أن يقيم بيتاً لله ، أن يعشر كل ما يعطيه له الله ...

بيت إيل ونصب خيمته. وله بيت إيل من المغرب ، وعاء من المشرق " (تك ١٢ : ٧ ، ٨) .
 إنما كان يقصد مدينة بيت إيل ، كما كانت معروفة في أيامه بهذا الاسم . ولكنها قبل أبينا
 يعقوب لم يكن إسمها هكذا . بل يقول الكتاب حينما سماها أبونا يعقوب (بيت إيل) "ولكن
 إسم المدينة كانت لوز" (تك ٢٨ : ١٩) .

المهم أن آبائنا يعقوب كان الأول في عدة أمور ، منها :

- ✳ كان أول من نذر نذراً للرب .
- ✳ كان أول من استخدم تعبير (بيت الله) .
- ✳ كان أول من سمى مدينة (بيت إيل) بهذا الاسم .
- ✳ كان أول من دشن مكاناً للرب ، ودشنه بالزيت .

تحصينه للمستقبل

وقد أعد له الله رؤية السلم الواصلة بين السماء والأرض ، ورؤية الملاك ، وسماع
 الوعد الإلهي ، وما قدمه هو من نذر لسببين يتعلقان بالحاضر والمستقبل ...
 أما عن ذلك الوقت الحاضر ، فلكى يطمئنه في خوفه وهربه ، وأيضاً لكى يقيم علاقة
 خاصة معه ...

وأما عن المستقبل ، فلكى يكون له الإيمان الذى لا يتأثر بعبادة الأصنام التى كانت فى
 بيت لابان خاله . فالكتاب يذكر أنه عند هروبه من بيت لابان ليرجع إلى بيت أبيه اسحق ،
 أن "راحيل سرقت أصنام أبيها" (تك ٣١ : ١٩) . ولم يكن يعقوب يعرف ذلك (تك ٣١ : ٣٢)
 وذكر أيضاً أن لابان فى مطاردته ليعقوب قال له "لماذا سرقت آلهتى" (تك ٣١ : ٣٠) .

ونفسر ذلك بتقسيم الناس فى عبادتهم إلى ثلاثة أقسام :

✳ النوع الأول الذى يعبد الله وحده ، ويمثله أبونا ابراهيم وأبونا اسحق فى أيام أبينا
 يعقوب . ويمثله قبل ذلك أبونا نوح ، وسلسلة رؤساء الآباء التى وردت فى (تك ٥) . مثل
 آدم وشيث وأنوش .. وأخنوخ ومتوشالch ...

✳ نوع آخر كان بعيداً كلية عن الله ، ويعبد الأصنام ، مثل شعوب الأرض كالكنعانيين
 والحيثيين والأدوميين وغيرهم .

✳ نوع ثالث كان يعبد الله الإله الحقيقي ، مع تأثره بعبادة الأصنام أيضاً ، فكانه يعبد
 الله ومعه آلهة أخرى . ومن أمثلة هؤلاء لابان .

ولذلك قال حينما عقد اتفاقية مع يعقوب فى انفصاله عنه " إله ابراهيم ، وآلهة ناحور
آلهة أبيهما يقضون بيننا " (تك ٣١ : ٥٣) .

ولعله وقع فى هذا النوع أيضاً سليمان بن داود فى أيام شيخوخته حينما حدث " أن
نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه .
فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين .. " (امل ١١ : ٤ ، ٥) .

لذلك أراد الله بظهوره ليعقوب وكلامه معه أن يحصنه أيضاً ضد العبادة المنحرفة
التي كانت فى بيت لابان ، والتي ربما تكون قد تأثرت بها أيضاً راحيل التي صارت
زوجة ليعقوب ، وهى ابنة لابان .

على أية الحالات لقد سرّ الرب بنذر يعقوب ، وأيضاً بتدشينه ذلك العمود ، وتسميته
للمكان بيت إيل .

لذلك نرى أن الرب لما سمح لأبينا يعقوب بأن يترك لابان ، ويرجع إلى بيت أبيه ،
قال له "أنا إله بيت إيل، حيث مسحت لى عموداً، حيث نذرت لى نذراً . الآن قم اخرج
من هذه الأرض، وأرجع إلى أرض ميلادك" (تك ٣١ : ١٣) .

إن كان ظهور الرب لأبينا يعقوب فى حلم ، والعهد الذى تم بينهما فى بيت إيل . كل
ذلك كان نقطة تحول أساسية فى حياة يعقوب ، وبالتالي فى نسله ...

تشجع بعد ذلك يعقوب " ورفع رجله ، وذهب إلى أرض بنى المشرق " (تك ٢٩ : ١) .

فى هذه المرة ، سار بإيمان قوى . وكان الله يعدّ الطريق قدامه ، ويسهل سبله .

أعدّ له كيف يلتقى براحيل ثم بأبيها لابان ، بطريقة تشبه إلى حد بعيد كيف يسّر الرب
طريق اليعازر الدمشقى عبد أبينا ابراهيم ليختار زوجة لاسحق ابنه، من نفس هذا البيت ،
بيت بتوئيل ولابان ... هذا الذى قال له أبونا ابراهيم "إن الرب الذى سرت أمامه، يرسل
ملاكه معك وينجح طريقك " (تك ٢٤ : ٤٠) .

إنه نفس الملاك الذى أرسله الرب ليهدى يعقوب إلى بيت خاله لابان - هذا الذى
تذكره يعقوب وهو يبارك افرام ومنسى (تك ٤٨ : ١٦) .

هناك عند البئر التقى براحيل ، كما التقى اليعازر الدمشقى برفقة أمه .

وهناك " قبل يعقوب راحيل ، ورفع صوته وبكى . وأخبرها بأنه أخو أبيها وأنه ابن
رفقة" (تك ٢٩ : ١١ ، ١٢) .

يعقوب أبوالآباء وملاحظات على قصة زواجه

للتقى يعقوب براحيل ابنة خاله عند البئر .

إنه البئر الذى كان الرعاة يستقون منه لغنمهم . وكان على فم البئر حجر كبير ، فينتظر الرعاة إلى أن يجتمعوا ، فيدحرجوا الحجر عن فم البئر . فلما رأى يعقوب راحيل ابنة خاله قادمة مع غنمها ، تقدم ودحرج الحجر عن فم البئر ، وسقى غنم لابان خاله" (تك ٢٩: ٣ ، ١٠) .

لقد ذكرت المرأة السامرية بئر أبيينا يعقوب فى حديثها مع السيد المسيح (يو ٤: ١٢) إذن فهو بئر له تاريخ وشهرة ، ولاشك أن أبانا يعقوب ظهرت قوته حينما زحرج الحجر عن فم البئر وسقى الغنم . وهناك قبل يعقوب راحيل ، ورفع صوته وبكى . وأخبرها أنه أخو أبيها، وأنه ابن رفقة (تك ٢٩: ١١) .

الحجر

أحجار هامة فى حياة يعقوب يذكرها لنا الكتاب :

الحجر الذى كان تحت رأسه ، ومنه ارتفع سلم إلى السماء ، وقد صب على هذا الحجر زيتاً ، ودعا المكان بيت إيل ، أى بيت الله (تك ٢٨: ١٨ ، ١٩) . وهو يذكرنا بحجر الأساس الذى نضعه لكل كنيسة . وهذا الحجر كان فى بدء علاقته بالله . والحجر الثانى هو الحجر الكبير الذى دحرجه عن فم البئر ، وكان بدء العلاقة بينه وبين راحيل وأبيها لابان (تك ٢٩: ١٠) .

والحجر الثالث هو الذى أوقفه عموداً ، ليكون شاهداً بينه وبين لابان ، فلا يتجاوز أحدهما هذا الحد إلى الآخر ، وذلك عندما فارق يعقوب لابان (تك ٣١: ٤٥ - ٥٢) . أما الحجر الرابع ، فهو تأكيد للحجر الأول ، بعد أن ظهر له الله فى بيت إيل . فقص يعقوب عموداً من حجر ، وسكب عليه سكبياً ، وصب زيتاً . ودعا اسم المكان

الذى فيه تكلم الله معه بيت ايل" (تك ٣٥: ١٤، ١٥) . ولعل هذا يعنى التصاقه ببيت الله فى ذهابه وفى عودته .

أخوأيها

قال يعقوب لراحيل إنه أخو أبيها (تك ٢٩: ١٢) بينما أبوها لابان كان خاله (تك ٢٩: ١٠) . فماذا يعنى ذلك ؟

لقد كانوا يستعملون عبارة (أخ) للدلالة على صلة القرابة الشديدة القرب كالعم والخال .

ولذلك نرى أن لابان بعد أن قابل يعقوب ، وقبله فى بيته ، وصار يعقوب يرعى غنمه، أن لابان قال له "الأنك أخى تخدمنى مجاناً؟! أخبرنى ما أجرتك؟" (تك ٢٩: ١٥) ، بينما لم يكن أخاه، وإنما ابن اخته رقيقة ...

ونفس التعبير قيل عن العلاقة بين أبرام ولوط .

قيل فى سبى سادوم "وأخذوا لوطاً ابن أخى ابرام" (تك ١٤: ١٢) . وقيل بعد ذلك "فلما سمع ابرام أن أخاه قد سبى، جمع رجاله المدربين " (تك ١٤: ١٤) . بينما أن لوطاً كان ابن هاران أخيه (تك ١١: ٣١) .

بنفس التعبير ذكرت الأناجيل عبارة : أخوة المسيح .

ولم يكونوا أخوته ، وإنما كانوا أولاد خالته (مريم زوجة كلوبا) . وانظر فى ذلك كتابنا (اللاهوت المقارن ص ١٠٠ إلى ص ١٠٢) .

زواج يعقوب

ولاً كان زواجاً مبنياً على حب .

وهذه الحقيقة تكررت كثيراً فى قصة يعقوب وزواجه . فقيل "وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر . وأحب يعقوب راحيل " (تك ٢٩: ١٧، ١٨) . وأيضاً قيل عنه إنه "أحب راحيل أكثر من لينة" (تك ٢٩: ٣٠) . ولأنه أحبها ، طلبها من أبيها أن تكون له زوجة . فقال له أبوها "اعطيك إياها، أحسن من أن أعطيها لرجل آخر. أقم عندى" (تك ٢٩: ١٩) .

إن الزواج المبنى على الحب والمودة ، أعمق بنياناً وأكثر دواماً .

ولا نغنى بالحب علاقة شهوة جسدية ، بل نغنى به تعلق القلب بالقلب، فى مودة وتقاهم، وفى توافق فكر وأسلوب ، كما يقول المثل "من شروط المرافقة الموافقة؟ فإنتان يترافقان معاً طول الحياة، لا بد أن تكون بينهما هذه الموافقة . لذلك فإن الأب الكاهن قبل إجراء سر الزواج، لا بد أن يتأكد أنه بموافقة كل من الطرفين . أما الضغط والإرغام لإتمام الزواج ، فإنه من الأسباب التى تدعو إلى بطلان الزواج .

ملاحظة أخرى نذكرها ، وهى أن أبانا يعقوب خدم لابان سبع سنوات بزواجه من ابنته ...

فهل كانت هذه هى (الشبكة) ، أو ما يسمونه المهر؟ المعروف أن الشبكة تعطى للخطيبة وليس لأبيها .. مثل هذه الشبكة قدمها لعازر الدمشقى لرفقة فى خطبتها لاسحق ابن سيده "أخذ خزيمة ذهب وزنها نصف شاقل، وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب" (تك ٢٤: ٢٢، ٣٠). "وأخرج أنية فضة وأنية ذهب وثياباً وأعطاهما لرفقة ، وأعطى تحفاً لأخيها وأمها" (تك ٢٤: ٥٣) .

ولكن ماذا أخذت راحيل ، وماذا أخذت لينة ، فى زواجهما من يعقوب ؟ لاشئ !! الكل أخذه لابان أبوهما ، كل ما فى الأمر أنه قدم لكل منهما جارية : زلفة جارية للينة، وبلهة جارية لراحيل (تك ٢٩: ٢٤، ٢٩) . ولم يكن كريماً معهما ...

ولذلك نرى أنه فيما بعد ، لما هرب يعقوب من بيت لابان ، انضمت إليه زوجته ، إذ لم يكن لهما مشاعر نحو أبيهما . وقد قالتا فى ذلك : "أنا أيضاً نصيب وميراث فى بيت أبيينا؟! ألم نحسب منه أجنبيتين ! لأنه باعنا وقد أكل أيضاً ثمننا!!" (تك ٣١: ١٤، ١٥) .

فما هو الثمن الذى دفعه أبونا يعقوب فى زواجه ؟

خدم لابان سبع سنين بابنته راحيل . فلما خدعه وأزوجه لينة ، خدم سبع سنين أخرى بتلك الأخرى (تك ٢٩: ١٨، ٣٠) . أى أنه اشتغل عنده بلا أجر ١٤ سنة راعياً لغنمه . ثم اشتغل ست سنوات أخر بغنم أعطاهما له (تك ٣١: ٤١) .

ما الذى أخذته البنات من خدمة ١٤ سنة مجاناً ، خدمها يعقوب لأبيهما لابان ؟ لاشئ طبعاً .

سبع سنوات خدمها براحيل بسبب محبته لها . فلما خدعه لابان وأزوجه لينة ، خدمه بتلك سبع سنوات أخرى ، على الرغم من أنه لم يطلبها ، وقد أقحمها لابان فى حياته غشاً.. وقد قيل عن محبة يعقوب لراحيل : "فخدم يعقوب براحيل سبع سنين . وكانت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها " (تك ٢٩: ٢٠) .

تعطينا القصة فكرة عن فترة الخطوبة .

لقد خطب يعقوب راحيل . ولكنه لم يأخذها زوجة إلا بعد أن أكمل السبع سنوات خدمة . وبعد السبع سنوات قال لابان " أعطنى إمرأتى لأن أيامى قد كملت " (تك ٢٩: ٢١) ... فعملها أطول فترة خطوبة سمعنا عنها . أضيف إليها اسبوع بعد زواجه بليثة . إذ قال له لابان " أكمل اسبوع هذه ، فنعطيك تلك .. فأكمل اسبوع هذه ، فأعطاء راحيل ابنته زوجة له " (تك ٢٩: ٢٧ ، ٢٨) .

الكبيرة والصغيرة

ملاحظة رابعة نقولها فى قصة زواج أبينا يعقوب وهى :

عادة زواج الأخت الكبيرة قبل الصغيرة ...

كانت راحيل الصغيرة أجمل من أختها الكبيرة ليثة . "كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر . وكانت عينا ليثة ضعيفتين " (تك ٢٩: ١٧) . فماذا يحدث إن أحب طالع الزواج الأخت الصغيرة وأرادها زوجة؟ هل تقف الكبيرة عقبة أمامها؟ وطبيعى أن كل من يسألنى ليطلب الزواج - سواء يعقوب أو غيره - سيطلب الصغيرة الجميلة !! وتبقى العبارة التى قالها لابان وهى "لا يفعل هكذا فى مكاننا، أن تُعطى الصغيرة قبل الكبيرة" (تك ٢٩: ٢٦) . فماذا كان الحل إذن ؟

الحل هو الخداع الذى قام به لابان ، أنه أعطى ليثة على اعتبار أنها راحيل . فخدع يعقوب .

ولم يطلب يعقوب بطلان الزواج ، وقبل . وعلى الرغم من أنه واجه لابان وقال له "لماذا خدعتنى" ، إلا أنه لعله تذكر أن البركة كان سيقدمها أبوه اسحق لأخيه عيسو ، ولكنه بالخدعة أخذ البركة منه .. فكانت هذه عقوبة نالها نتيجة لخديعته لأبيه .. ولو أنها جاءت متأخرة ...

أما طريقة الخداع فى الزواج ، فربما كانت هكذا ..

كانت الزوجة تزف إلى زوجها منقبة ، بحيث لا يرى من وجهها شيئاً . ثم يرفع نقابها عندما يدخل بها إلى خيمته . وقد أعطاء لابان ابنته ليثة بعد أن صنع وليمة " وكان فى المساء ، أنه أخذ ليثة ابنته وأتى بها إليه " (تك ٢٩: ٢٣) . ولعل النور لم يكن كافياً فى ذلك الزمان "وفى الصباح إذا هى ليثة " !!

صراع الأختين

الضرة هي الضرة ، حتى لو كانت أختاً وشقيقة .

وحسناً أسموها ضرة ، ولعلها مشتقة من الضرر . وهذا يرينا بلا شك حكمة الزوج بأمرأة واحدة ، التي صارت شريعة العهد الجديد ، بعد أن تأكد للكل عملياً مشاكل تعدد الزوجات . فماذا حدث لزوجتي يعقوب ؟

تصارعت الزوجتان ، حول محبة الرجل وإنجاب البنين .

من جهة محبة الرجل قيل إن يعقوب "أحب راحيل أكثر من ليئة" (تك ٢٩ : ٣٠) . في الواقع لست أدري في أسبوع ليئة ، أى خلال الأسبوع الأول لزوجها ، كيف كان شعورها وهي تعلم أنها مكروهة ، وأنها دخلت بخدعة في حياة هذا الرجل ، وأنه يقضى معها هذا الأسبوع لكي تُعطى له أختها الجميلة راحيل ..؟

وكيف كان شعور راحيل خلال ذلك الأسبوع ، وهي تشعر أنه كان من حقها ، وقد ظلمها أبوها ، وقتّم اختها بدلاً منها فاغتصبت منها خطيبها؟!

وماذا كان شعور يعقوب ، وهو مضطر أن يقضى ذلك الأسبوع مع ليئة على الرغم منه ، وبخاصة بعد أن اكتشف الخديعة في صباح اليوم الأول؟! أكان ذلك أسبوعاً طبيعياً بين زوجين؟! لست أعلم .

المهم أن هذا الأسبوع الأول الغريب قد انتهى . وعاد يعقوب فأخذ راحيل زوجة له ، وجمع بين الزوجتين الأختين ، الأمر الذي نهت عنه الشريعة أيام موسى النبي ، فأمرت بأنه "لا تأخذ امرأة على اختها للضرر" (١٨ : ١٨٧) .

وهنا تدخل الرب لعمل توازن بين الزوجتين .

إن كان لراحيل فضل محبة الزوج ، فليكن لليئة فضل إنجاب البنين . وهكذا قيل "ورأى الرب أن ليئة مكروهة ، ففتح رحمها . وأما راحيل فكانت عاقراً" (تك ٢٩ : ٣١) . وكانت ليئة تعتقد أن كثرة إنجابها سوف تجذب محبة زوجها لها . كما قالت بعد إنجاب ابنها الأول : "الآن يحبني رجلى" (تك ٢٩ : ٣٢) .

يعقوبُ أبوالآباء وصراعُ بين زوجتين

خضع أبونا يعقوب للأمر الواقع ، وقيل لئنة زوجة له ، ثم تزوج باختها راحيل ، وجمع بين الإثنتين . وهكذا عاش مع الزوجة التى يحبها (راحيل) ، والزوجة التى تحبه وتتمنى أن تحظى بمحبته (لئنة) . وعاشت الإثنتان فى صراع ...

لقد ابتعد أبونا يعقوب عن الزواج بالغريبات غير المؤمنات ، لئلا يملن قلبه بعيداً عن الله ، كما حدث لسليمان الحكيم فيما بعد (مل ١١ : ٣) . وذهب ليتزوج من أسرة مقدسة من أقارب أبيه وأمه . ولم يكن يدرى أن هناك مشاكل يمكن أن تلحقه من هؤلاء (القديسين) أيضاً ، من خاله الذى خدعه ، ومن ابنتى خاله فى صراعهما معاً . لئنة الضعيفة العينين وراحيل الجميلة !

وهنا نرى حنان الله العجيب فى تدخله بينهما :

" رأى الرب أن لئنة مكروهة ، ففتح رحمها . وأما راحيل فكانت عاقراً " (تك ٢٩ : ٣١) .

لقد وقف الله إلى جوار لئنة الضعيفة المكروهة ، كما وقف إلى جوار يعقوب الضعيف أمام أخيه عيسو .

كانت راحيل شبعانة حباً ، لها العزاء البشرى من محبة زوجها لها . أما لئنة فلم يكن لها سوى الله . لذلك عزاها الله بكثرة البنين . ورأت هى أن إجابها للبنين سوف يجعل زوجها يحبها . وظاهر هذا من تسميتها لأبنائها ...

تصوروا أن الأولاد الأربعة الأول الذين رزق بهم أبونا يعقوب ، كلهم قد ولدتهم له لئنة ...

" حبلت لئنة وولدت إيناً ، ودعى اسمه رأوبين ، لأنها قالت إن الرب قد نظر إلى

مذلتى. إنه الآن يحبني رجلى " (تك ٣٩: ٣٢) ... حقاً إن شعورها بالذل ، وأن زوجها لا يحبها لأنها فرضت عليه .. كان هذا أمراً مؤثراً .

"وحبلت أيضاً وولدت ابناً . وقالت إن الرب قد سمع إنى مكروهة ، فأعطانى هذا أيضاً" (تك ٢٩: ٣٣) . "ودعت إسمه شمعون" وهو إسم معناه (سماع) أى سماع الله لطلبتها .

وواضح من كل ذلك إن البنين ميراث من عند الرب ، حسبما ورد فى المزمور (مز ١٢٧: ٣) .

إنها تقول فى الولادة الأولى "الرب قد نظر إلى مذلتى" وتقول أيضاً فى الولادة الثانية "الرب قد سمع أنى مكروهة فأعطانى هذا أيضاً" . وكل هذا يؤيد قول الوحي الإلهى إن الرب "فتح رحمها" .

ونفس هذا الكلام سنسمعه أيضاً فيما بعد عن أختها راحيل ، إذ يقول الكتاب "وذكر الله راحيل ، وسمع لها الله وفتح رحمها فحبلت وولدت" (تك ٣٠: ٢٢) . واستمرت ليثة فى سلسلة الولادة ...

فحبلت للمرة الثالثة "وولدت ابناً ، وقالت الآن هذه المرة يقترب بى رجلى ، لأنى ولدت له ثلاثة بنين . لذلك دعى إسمه لاوى" (تك ٢٩: ٣٤) . وهو إسم معناه (مقترن) . "وحبلت أيضاً وولدت ابناً . وقالت هذه المرة أحمد الرب لذلك دعى إسمه يهوذا" (تك ٢٩: ٣٥) . ومعنى الإسم هو حمد أو مدح .

ونلاحظ أن ليثة المكروهة ولدت (لاوى) الذى صار سبط الكهنوت . كما ولدت يهوذا الذى صار سبط الملك ، ومنه أيضاً جاء المسيح له المجد .

ولما وصلت إلى هذا الحد ، قال الكتاب مباشرة عنها "ثم توقفت عن الولادة" (تك ٢٩: ٣٥) .

لقد أدت أعظم رسالة . ولو أنها لم تلد بعد ذلك ، لكان هذا يكفى . ويبدو أنه كان ينبغى أن يوجد فاصل بين السبط الذى يأتى منه المسيح وباقي الأسباط . ثم كان ينبغى أيضاً أن تتوقف لكى تعطى فرصة لأختها راحيل التى لم تعد تحتل ... كانت راحيل فى حاجة إلى نظرة عطف من عيني ليثة الضعيفتين .

هنا نقرأ فى الكتاب أن "راحيل غارت من أختها ، وقالت ليعقوب : هب لى بنين . وإلا فأنا أموت" (تك ٣٠: ١) ... مهما كان حب يعقوب لها ، فإن حرمانها من البنين أتعبها

إلى حد إشتهاء الموت ...

إن حب الأمومة غريزة عند المرأة . وأيضاً إن المرأة العاقر كانت تشعر بالعار وقتذاك (تك ٣٠: ٢٣) .

ولكن ما الذى يستطيع أن يفعله يعقوب من أجل راحيل ، مادام البنون ميراثاً من عند الرب ؟! وهنا نرى يعقوب الهادئ ، لأول مرة يحتد على راحيل التى يحبها . فيقول الكتاب "فحمى غضب يعقوب على راحيل . وقال "ألعلى مكان الله الذى منع عنك ثمرة البطن؟" (تك ٣٠: ٢) .

وهنا نتذكر راحيل قصة جدتنا سارة ، وفكرة التبنى ، بأن تحصل على ابن عن طريق جاريته .

فقالت ليعقوب "هوذا جاريتى بلهة . أدخل عليها فتلد على ركبتي ، وأرزق أنا أيضاً منها بنين" (تك ٣٠: ٣) . إنه نفس كلام سارة مع أبينا إبراهيم عن جاريته هاجر "أرزق منها بنين" (تك ١٦: ٢) ...!

إن الزوجة لا تستريح إطلاقاً أن يدخل زوجها على امرأة أخرى . ولكن يبدو أن هذه كانت حالة إستثنائية ، للحصول على ابن عن طريق التبنى . وهى حالة لم تكن سارة وراحيل فقط ترضاهما ، وإنما بالأكثر تطلبها !!..

والعجيب أن هذه الوسيلة البشرية كانت نتيجتها سريعة !!

وولدت بلهة إبناً ليعقوب ، فرحت به راحيل جداً . وقالت : قد قضى لى الله . وسمع أيضاً لصوتى وأعطانى إبناً . لذلك دعت اسمه دان (تك ٣٠: ٥ ، ٦) . وكلمة دان معناها يقضى (ومنها كلمة الدينونة) .

وعادت بلهة فحبلت . وولدت إبناً ثانياً ليعقوب . فقالت راحيل "مصارعات الله قد صارعت أختى وغلبت . فدعت اسمه نفتالى" (تك ٣٠: ٧ ، ٨) . وهو اسم معناه (مصارعتى) .

وعجيب أن راحيل اعتبرت نفسها صارعت وغلبت ، بالتبنى عن طريق ابن تلمده جاريته .

وحينئذ اضطرت اختها لينة ، أن تدخل معها فى نفس ميدان التبنى ، بابتن تلمده جاريته .

لم تكف بالأبناء الأربعة الذين ولدتهم هى من رحمها . وإنما أخذت جاريته زلفة

"وأعطتها ليعقوب زوجة". فولدت له إينين : الأول أسمته لينة (جاد)، والثاني أسمته (أشير) .

على أن لينة لم تكف بكل ما صار لها من بنين ، سواء من ولدتهم أو من تبنتهم من جاريتها .

وأخيراً استأجرت يعقوب من راحيل بلفاح ابنها .

واللفاح نبات له رائحة طيبة . وكان قد وجدته رؤيين فى الحقل وأعطاه لأمه لينة ، فطلبت منه راحيل فأعطتها إياه فى مقابل أن تترك لها يعقوب تلك الليلة . فكان أن أنجبت إينها الخامس ، ودعت اسمه (يساكر) ومعنى الاسم (يعمل بأجرته) (تك ٣٠ : ١٤ - ١٨) . ثم عادت لينة فولدت إيناً سادساً ليعقوب أسمته (زبولون) . ومعنى هذا الاسم سكن أو إقامة . وقالت "الآن يساككنى رجلى، لأنى ولدت له ستة بنين" (تك ٣٠ : ٢٠) .

وولدت له أيضاً الإبنة الوحيدة ، ودعت اسمها (دينة) (تك ٣٠ : ٢١) .

وهكذا كانت لينة الزوجة المكروهة هى الأكثر إنتاجاً ، ولدت ليعقوب نصف أولاده ، بقدر ما ولدته الجاريتان وراحيل .

وأخيراً افتقد الله راحيل فى منزلتها ، وفتح رحمها . وولدت يوسف ، قائلة : قد نزع الله عارى (تك ٣٠ : ٢٢ - ٢٤) . ومعنى اسمه (يزيد) . لأن راحيل قالت فى ذلك "يزيدنى الرب إيناً آخر" .

وصارت ليوسف محبة كبيرة جداً فى قلب راحيل وفى قلب أبيه يعقوب ، هذا الذى جاء أخيراً بعد فترة طويلة من العقم ، تعلمنا أنه لا يأس . فالله قادر أن يمنح للعاقرة إيناً مهما طالبت المدة ...

وما أكثر ما كانت لأبناء العواقر أهمية خاصة أو عظمة خاصة فى التاريخ .

مثال ذلك صموئيل ابن حنة ، وكانت عاقراً ، وكانت ضررتها الولود (فتنة) تغيظها (اصم ١ : ٢ - ٦) . وقد صار صموئيل نبياً عظيماً ، وهو الذى مسح داود ملكاً (اصم ١٦ : ١٣) . ومن قبل داود مسح شاول ملكاً (اصم ١٠ : ١) .

ومن أبناء العواقر يوحنا المعمدان . وكانت أليصابات أمه عاقراً (لوقا ١ : ٧) . وقد قال السيد المسيح عن يوحنا إنه أعظم من ولدته للنساء (مت ١١ : ١١) . يكفى أنه عمّد المسيح . شمشون الجبار أيضاً كانت أمه عاقراً (قض ١٣ : ٢) . وقد منحه الله قوة عظيمة ، وصنع به خلاصاً عظيماً لشعبه .

على أن راحيل فى رحلة العودة ، زلدها الله إبناً ثانياً . وكانت ولادة متعسرة . ولنته وماتت .

ذلك هو (بنيامين) أصغر أبناء يعقوب (تك ٣٥ : ١٦ - ١٩) . وقد أحبه يعقوب جداً ، وبخاصة بعد أن حُرّم من يوسف زمناً طويلاً . هو ويوسف إنا راحيل للمحبوبة . ويبدو أن أبناء الزوجة المحبوبة يكونون محبوبين من زوجها .
إنه صراع طويل بين زوجتى يعقوب ، احتمله هو فى هدوء . وكانت نتيجته ١٢ ابنًا ، ثم ابنة .

وفى إجاب البنين تماوت راحيل مع الجاريتين ١

ابنة أنجبت ستة بنين وابنة . وكل جارية أنجبت إبنين ، وراحيل أيضاً أنجبت إبنين وماتت .

ودفنت راحيل فى طريق افراثة التى هى بيت لحم . ونصب يعقوب عموداً على قبرها (تك ٣٥ : ١٩ ، ٢٠) .

كانت حياة يعقوب كلها صراعاً ...

انتهى من الصراع مع أخيه عيسو ، ليدخل فى صراع بين زوجتيه ، وصراع مع خاله لابان ، ثم دخل فى صراع مع الله ليعينه على مقابلة عيسو فى رحلة العودة . ثم صراع بين أولاده وشكيم ، وصراع آخر بين أولاده وأخيه يوسف .

ولهذا كان يتكلم من قلبه ، ومن خبرات حياته ، حينما قال لفرعون :

"أيام سنّى غربتى مئة وثلاثون سنة ، قليلة وردية ، كانت أيام سنّى حياتى" (تك ٤٧ :

٩) .

يعقوبُ أبوالآباء رحلة العودة إلى بيت أبيه وصراعه مع خاله لابان

متى ؟ وكيف ؟

قبل أن يبدأ الرحلة إلى بيت خاله لابان ، وعده الله قائلاً "ها أنا معك، أحفظك حيثما تذهب ، وأردك إلى هذه الأرض " (تك ٢٨: ١٥) . فماذا كان معنى ذلك الوعد "أحفظك" ؟ ليس المعنى : أحفظك من التجارب ، وإنما أحفظك في التجارب .

فقد تعرض أبونا يعقوب لبعض التجارب ، ولكن الله كان معه في التجارب وأنقذه: لقد تعرض لصراع بين زوجتيه . ولكنه خرج من هذا الصراع سليماً ، ولم يخسر محبة أية واحدة منهما ، بل انضمت الإشتتان إليه ضد أبيهما حينما انفصل عنه (تك ٣١: ١٤ ، ١٥) . وكان الله معه ، حينما فتح رحم راحيل فولدت له ابناً (تك ٣٠: ٢٢) . وصار هذا الابن أحب أبنائه إليه . كما منحه أيضاً أبناء من باقى نساته .

وتعرض يعقوب أيضاً لصراع مع خاله لابان ، كما تعرض لخوف شديد من ملاقة أخيه عيسو . وكان الله معه في كلا الأمرين ، كما سنرى فيما بعد ...

الأمر الثاني : وعده الله بأن يعيده إلى أرضه . ولكن متى حدث هذا ؟

لقد قضى عشرين سنة بعيداً عن بيت أبيه : منها سنوات اشتغل أثناءها كأجرة للحصول على زوجتيه . والباقي منها فترة إنجاب البنين ، وكانت العشرون سنة كلها فترة تعب ، قال عنها : "كنت في النهار يأكلني الحر ، وفي الليل الجليد . وطار نومى من عيني" (تك ٣١: ٤١) .

وفي كل هذا التعب كان الله معه . وخلال الست سنوات التى اشتغل فيها للحصول

على غم ، تدخل الله وساعده كثيراً ، فصار غنياً جداً " إتسع كثيراً جداً . وكان له غم كثير ، وجوارٍ وعبيد ، وجمال وحمير " (تك ٣٠ : ٤٣) . لدرجة أن هذا الغنى أثار عليه خاله لابان "ونظر يعقوب وجه لابان ، وإذا هو ليس معه كامس وأول من أمس" (تك ٣١ : ٢) . وأيضاً كان الله معه .

موضوع الغم المخططة وغير المخططة ، يبدو أنه اسلوب بشرى لجأ إليه يعقوب . ولكن الله وافق عليه ، ليرد إليه ما سلبه منه لابان (تك ٣٠ : ٣٢ - ٤٠) (تك ٣١ : ١٦) . إنه الله الذى يحكم للمظلومين . كما سنراه فيما بعد يحكم لبني يعقوب ضد فرعون وشعبه ، هذا الذى سخرهم فى العمل بدون أجر (خر ١٢ : ٣٥ ، ٣٦) . وأمام هذا الغنى ، انطبقت على يعقوب ولابان تلك العبارة المؤثرة التى قيلت عن ابرام ولوط من قبل إنه "لم تحتلهما الأرض أن يسكنا معاً" (تك ١٣ : ٦) . فكان لابد أن يعتزل أحدهما عن الآخر ...

العودة

"وقال الرب ليعقوب : ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك ، فأكون معك" . أخيراً بعد عشرين سنة ، حقق الله وعده الذى قال له فيه "وأردك إلى هذه الأرض" (تك ٢٨ : ١٥) . حقاً ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الآب فى سلطانه" (أع ١ : ٨) . وكانت لله حكمة معينة فى تحديد وقت رجوع يعقوب إلى بيت أبيه . فماذا كانت ؟

أولاً : لكى لا يرجع إلى بيت أبيه فارغاً . وإنما يكون معه أولاده ونساؤه وجواريه ، وكل غناه .. وثانياً يكون الله قد هيا قلب عيسو من نحوه ، فلا يؤذيه . وبدأ يعقوب يخطط لرحلة العودة . ونلاحظ فى ذلك :

١ - اتفاقه مع زوجته ، والحصول على رضاها :

جمعهما وكلمهما فى صراحة ، وشرح لهما الأمر : كيف أنه بكل قوته قد خدم أباهما ، الذى غير أجرته عشر مرات ، وغدر به ، وتغير وجهه من نحوه . ولكن الله كان معه ، وقال له ملاك الله فى حلم " قد رأيت كل ما يصنع بك لابان " (تك ٣١ : ٤ - ١٢) .

ووافقت ليئة وراحيل وقالتا له " ليس لنا نصيب وميراث فى بيت أبينا ... الآن كل ما قاله لك الله افعل " (تك ٣١ : ١٤ ، ١٦) .

٢ - وحسب طبيعة يعقوب وخوفه ، رأى أن يكون رحيله سراً .
أخذت مغادرته بيت خاله لابان شكل الهروب .. "وخذع يعقوب قلب لابان الأرامى ، إذ لم يخبره أنه هارب" (تك ٣١ : ٢٠) .

صراع مع لابان

لم يكن لابان مخلصاً فى علاقته مع يعقوب .

على الرغم من أنه قبله فرحاً فى بادئ الأمر باعتباره ابن اخته ، إذ "ركض للقاءه وعانقه وقبله ، وأتى به إلى بيته .. وقال له "إنما أنت عظمى ولحمى" (تك ٢٩ : ١٣ ، ١٤) . وعلى الرغم من أنه لما اشتغل يعقوب فى رعى غنم لابان ، قال له لابان "الأنتك أخى تخدمنى مجاناً؟ أخبرنى ما هى أجرتك؟" (تك ٢٩ : ١٥) .

إلا أن لابان لم يكن مخلصاً ليعقوب كما قلنا . والأدلة كثيرة منها :
١ - خدعه فى زواجه من راحيل .

بعد أن خدمه بها سبع سنوات ، أدخل إليه لينة بدلاً منها . ولما احتج على ذلك يعقوب وقال له "لماذا خدعتنى؟" أجابه "لا يفعل هكذا فى مكاننا أن تُعطى الصغيرة قبل البكر" . وألزمه أن يخدمه سبع سنوات آخر ، فى مقابل الإينة الثانية (تك ٢٩ : ٢٧ ، ٣٠) . أى أن لابان قام بالخداع ، وقام يعقوب بدفع الثمن .

٢ - ولم يكن مخلصاً ليعقوب من جهة الأجرة وطبيعة العمل .

فمن جهة الأجرة قال عنه يعقوب "عذر بى ، وغير أجرتى عشر مرات" (تك ٣١ : ٧ ، ٤١) . ومن جهة العمل ، كان يحسب على يعقوب وحده كل خسارة مشتركة . فعلى الرغم من أن غنم الإثنيين كانت ترعى معاً ، إلا أنه كان يحسب على يعقوب كل الأغنام المسروقة والتى افترستها الوحوش . وهكذا قال له يعقوب فى عتابه معه "تعاجك وعنازك لم تُسقط .. فريسة لم أحضر إليك ، أنا كنت أخسرها . من يذى كنت تطلبها : مسروقة النهار ، ومسروقة الليل .. لولا أن إله أبى ، إله ابراهيم وهيبه اسحق ، كان معى ، لكنت الآن قد صرفتني فارغاً" (تك ٣١ : ٣٨ - ٤٢) .

٣ - وكان لابان أنانياً فى معاملته ليعقوب .

يكفى أنه قال له ، وهو مزعم على العودة إلى بيت أبيه "البنات بناتى ، والبنون بنى . وكل ما أنت ترى ، فهو لى" (تك ٣١ : ٤٣) .

عجيب أن يصدر هذا من خال نحو ابن اخته ، من شخص قال له قبلاً "إنما أنت عظمى ولحمى" (تك ٢٩: ١٤) . ولكن يبدو أنه حينما تتدخل الذات ومحبة المال والتقنية ، تسقط القيم والمبادئ ، وحتى رابطة القرابة أيضاً ...

٤ - ولم يكن لابان مخلصاً في مطاردته ليعقوب .

"أخذ أخوته (أى أقرباءه) معه ، وسعى وراءه مسيرة سبعة أيام . فأدركه في جبل جلعاد" (تك ٣١: ٢٣) . لحق به وقد ضرب يعقوب خيامه في الجبل . فضرب لابان خيامه في جبل جلعاد ، وواجهه واتهمه .. اتهمه بالخداع وبالغباوة ، وبأنه ساق بناته كسبايا السيف ، وبأنه حرمه من توديعه بنيه وبناته وتقبيلهم ، وتشجيعه هو أيضاً بالفرح والأغاني ، وبالدف والعود!! (تك ٣١: ٢٦ - ٢٨) . ولم يكن صادقاً في كل ذلك .

على أن الرب الإله تدخل لإنقاذ يعقوب من لابان :

نعم الله الذى ينقذ الضعيف ممن هو أقوى منه . "أتى الله إلى لابان الأرامى فى حلم الليل . وقال له : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر " (تك ٣١: ٢٤) . وأحدث هذا الإنذار تأثيره، إذ أن لابان - فى مواجهته ليعقوب - قال له " فى قدرة يدى أن أصنع بكم شراً . ولكن إله أبيكم كلمنى البارحة قائلاً : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو شر" (تك ٣١: ٢٩) .

نلاحظ هنا أنه يقول "إله أبيكم كلمنى" . ولم يقل "الله" أو "إلهنا" !!

هل عجيب أن الله يكلم لابان ، على الرغم من شره وعبادته للأصنام ؟

كلا . فإن الله قد يكلم الخطاة والأشرار : يعاقبهم أو ينذرهم أو ينصحهم لكى يتركوا ما هم فيه .. لقد كلم آدم وحواء فى خطيئتهما ، كما كلم الحية أيضاً : وفى كلامه عاقبهم جميعاً (تك ٣: ٩ - ١٩) . وكلم الرب قايين مرتين : قبل قتله لأخيه لكى ينذره ، وبعد قتله لكى يعاقبه (تك ٢٤: ٦ - ١٢) . بل إن الله قد تكلم مع الشيطان نفسه فى قصة تجربة أيوب الصديق (أى ١، ٢) .

ليس العجب إذن فى أن يكلم الله مخلوقاً شريراً . إنما المهم هو نوعية الكلام وهدفه . فما أكثر الذين كلمهم الله وهلكوا . أو كلمهم ثم سقطوا .

سَرَقَتْ آلَهُتِي !

العجيب أن لابان - بعد أن كلمه الله - قال ليعقوب "ماذا سرقت آلتهى؟" (تك ٣١: ٢٥)

إذن كانت له آلهة أخرى . كانت له أصنام سبق أن سرقتها راحيل (تك ٣١ : ١٩) . كيف أمكن لهذا الرجل أن يعبد آلهة يمكن أن تُسرق ؟! ولكن يبدو أن لابان كان يؤمن بتعدد الآلهة . واضح هذا من قوله (آلهتى) ، ومن قوله فى اتفاقيته مع يعقوب "إله ابراهيم، وآلهة ناحور، آلهة أبيهما، يقضون بيننا" (تك ٣١ : ٥٣) .

وقد ثار يعقوب على خاله لابان ، لإتهامه بسرقة أصنامه .

لأن إتهامه بالسرقة عموماً أمر مشين لكرامته . واتهامه بسرقة الأصنام أمر ضد كرامة الله ، وضد علاقته الشخصية بالله التى كان يحرص عليها . لذلك قال له "الذى تجد آلهتك معه، لا يعيش. قدام أخوتنا (أى أقاربنا) أنظر ماذا معى وخذه لنفسك" "ولم يكن يعقوب يعلم أن راحيل سرقتها" (تك ٣١ : ٣٢) .

ففتش لابان كل الأمتعة ولم يجد شيئاً . وخدعته راحيل بأن وضعت الأصنام فى حذاجة الجمل وجلست عليها "وقالت لأبيها: لا يفتظ سيدى أنى لا أستطيع أن أقوم أمامك لأن على عادة النساء . ففتش ولم يجد الأصنام " (تك ٣١ : ٣٥) .

لا تعيش !

على أن حكم يعقوب أبى الآباء - كنى لله - لم يضع عبثاً .

لقد قال للابان "الذى تجد آلهتك معه لا يعيش" . ومع أن لابان لم يجدها مع أحد، لكنها كانت موجودة مع راحيل .. ومع أن يعقوب لم يحكم على راحيل بالذات ، إذ أنه لم يكن يعلم أنها سرقت أصنام أبيها .. إلا أن حكمه وصل إلى سمع الله فاستجاب . وهكذا ماتت راحيل فى طريق افرائيم التى هى بيت لحم (تك ٣٥ : ١٩) . ولم تكمل معهم الرحلة .

ما كان ممكناً أن تدخل الأصنام إلى أرض الموعد .

وبخاصة عند بيت لحم التى كان سيولد فيها المسيح ...

هذه الأصنام تدل على أن راحيل قد تأثرت بالوثنية التى كانت فى بيت أبيها . وكان لابد أن يخلص الله يعقوب منها قبل عودته إلى بيت أبيه ...

على أن يعقوب عاتب خاله لابان ، وقال له :

إنك قد جسست جميع أثنائى . ماذا وجدت من جميع أثاث بيتك ؟! ضمه هنا بين أخوتى وأخوتك لينصفوا بيننا" (تك ٣١ : ٣٧) . ولم يكن ليعقوب أخوة فى تلك المناسبة . ولم تكن له أخوة أيضاً فى وقت إقامة شاهد بينهما من الحجارة ، حينما "قال يعقوب لأخوته

النقطوا حجارة " (تك ٣١: ٤٥) . ولكن عبارة أخوته كانت تعنى الأقرباء ذوى القرابة الشديدة ...

وأبرم يعقوب ولايان اتفاقية بينهما وعهداً :

جمعوا حجارة وأقاموها رجمة وعموداً . وقال لايان ليعقوب " شاهدة هذه الرجمة وشاهد العمود: أنى لا أتجاوز هذه الرجمة إليك، وأنك لا تتجاوز هذه الرجمة ، وهذا العمود إلى للشر " (تك ٣١: ٥٢) . وحلف يعقوب على ذلك بهيبة أبيه اسحق .

وتم هذا الفصل ، الذى هو صراع يعقوب مع خاله لايان . وبقي أن ندخل فى فصل آخر من صراعه فى اللقاء مع أخيه عيسو ، وما سبق ذلك من صراعه مع الله .

يعقوبُ أبوالآباء في رحلة العودة : خوفه من أخيه عيسو

انتهى ابونا يعقوب من مشاكله العائلية ، من جهة صراعات زوجتيه ، ومن مطاردة خاله لابان ، وسار في طريق عودته إلى بيت أبيه .

رعبه من عيسو

لا أقول كان خائفاً من عيسو ، بل كان مرتعباً ومرتعداً ...
كان مرتعباً منه ، على الرغم من كل وعود الله ومساندته له .
لعل عبارة عيسو كانت لا تزال ترن في أذنيه "أقوم وأقتل يعقوب أخي" (تك ٢٧ : ٤١).
ولعله كان يذكر كيف أخذ من أخيه البكورية . كيف استغل جوعه في ذلك اليوم ، وقال له: بعني بكوريتك .. واحلف لي (تك ٢٥ : ٣١ ، ٣٣) . ولعله تنكر أيضاً كيف أخذ منه البركة بالخداع . كيف قال لأبيه "أنا بركك عيسو" . وكيف قال أبوه لعيسو "قد جاء أخوك بمكر، وأخذ بركتك" (تك ٢٧ : ١٩ ، ٣٥) .

كانت خطايا ارتكبتها منذ عشرين عاماً ، لا تزال تطارده وتزعجه ...
لقد أخطأ منذ عشرين عاماً ، أترى قد جاء الآن وقت الحساب .. أترى هل سيلتقي به عيسو في البرية - بعيداً عن أبيه وأمه - وينتقم منه ؟ لاشك أنه مذنّب أمامه . والسنوات الطويلة التي مضت لم تمنح الذنب بعد .. إن الله يمكن أن يغفر الذنوب . أما عيسو ، فهل يستطيع أن يغفر ؟! إنه صياد يعرف كيف يضرب بالنبال من بعد ، ولا يتحرك قلبه حينما يجد فريسته تتلوى قدامه من الألم .. أترأه سوف يصيدني أنا أيضاً ؟ هكذا كانت الأفكار تتعب يعقوب ...

كان يدفع ثمن خطيئته خوفاً . الخوف يتعبه مثلما تعقب هو عيسو أخاه (تك ٢٧ :

كان الخوف جزءاً من طبيعته ، وكان يزيد أمران : شعوره بالذنب الذى اقترفه تجاه أخيه، وبقينه من شدة أخيه وقسمته ...

والمعروف أن البشرية لم تعرف الخوف إلا بعد الخطية ونتيجة لها . فلبونا آدم بعد أن أخطأ ، خاف واختبأ وراء الأشجار (تك ٣: ٨) .

وخوف يعقوب أنساه وعود الله ! لو لم تكن الوعود تكفى لطمأنته !!

كان الوعد الأول الذى سمعه من فم الله ، هو: "ها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض . لأنى لا أتركك ، حتى أفعل ما كلمتك به" (تك ٢٨: ١٥) . وكان الوعد الثانى هو قول الرب له "أرجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك ، فأكون معك" (تك ٣١: ٣) . وفى المرة الثالثة قال له الله "أنا إله بيت إيل حيث مسحت عموداً .. الآن قم اخرج من هذه الأرض ، وارجع إلى أرض ميلادك " (تك ٣١: ١٣) ... ومادام الله هو الذى أمره بالرجوع ، فهو الذى سيحفظه فى رجوعه ، حسب وعده الإلهى "أحفظك حيثما تذهب" . ومع ذلكبقى يعقوب خائفاً !!

وكان لابد أن يعمل الله عملاً آخر ليزيل عنه الخوف :

ففيما كان يعقوب سائراً فى الطريق "لاقاه ملائكة الله. وقال يعقوب إذ رآهم : هذا جيش الله..". (تك ٣٢: ١ ، ٢) . إن ملاكاً واحداً يكفى لطمأننة الخائف . ولكن يبدو أن خوف يعقوب كان بدرجة يحتاج فيها إلى ملاقات جيش من الملائكة ! هذا من جهة الإيمان . أما من جهة العمل فقد تصرف يعقوب هكذا :

إجراءات اللقاء

أرسل أولاً رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه لاسترضائه .

"وأمرهم هكذا يقولون لسيدى عيسو : هكذا قال عبدك يعقوب : تغربت عند لابان ، ولبثت إلى الآن . وقد صار لى بقر وحمير ، وغنم وعبيد وإماء . وأرسلت لأخبر سيدى لأجد نعمة فى عينيك" (تك ٣٢: ٣ - ٥) .

ومسرى أن عبارتى "سيدى، وعبدك" ستتكرران كثيراً منه .

بهاتين العبارتين سوف يسترضى قلب عيسو . لماذا ؟ لأن البركة التى أخذها يعقوب هى "كن سيداً لأخوتك. وليسجد لك بنو أمك" (تك ٢٧: ٢٩) . وحينما طلب عيسو البركة

من أبيه اسحق، قال له أبوه عن يعقوب "إني قد جعلته سيداً لك. ودفعت إليه جميع أخوته عبيداً ... فماذا أصنع لك؟" (تك ٢٧: ٣٧) .

فكان يعقوب يقول ليعيسو : إن كانت بركتي هذه تتبعك ، فمن الآن سأقول لك (سيدي)، وسوف أصبح أنا (عبدك يعقوب) . أما عن عبارة "يسجد لك بنو أمك" التي قبلت لي ، فسوف تراني ساجداً لك مرات عديدة ، لتستريح !... واستمر يعقوب في خوفه لما رجع رسله إليه ...

عادوا إليه وقالوا له عن عيسو "هو أيضاً قادم للقائك ، ومعه أربع مائة رجل" (تك ٣٢: ٦) . أربع مائة رجل؟ يا للهول . إن عيسو وحده مخيف ومرعب فكم يكون إذن ، ومعه أربع مائة رجل ؟! هنا ويقول الكتاب "فخاف يعقوب جداً ، وضاق به الأمر " . فماذا فعل في خوفه وشعوره بالخطر القادم ؟

"قسم القوم الذين معه ، والغنم والبقر والجمال ، إلى جيشين . وقال : إن جاء عيسو إلى الجيش الواحد وضربه ، يكون الجيش الباقي ناجياً " (تك ٣٢: ٧ ، ٨) . إذن أين إيمانك يا يعقوب بالوعد الإلهية المتكررة ؟! وما مدى تأثرك بما رأيته من جيش الملائكة الذي ظهر لك ؟! إن الخوف قد أحدث شللاً في مشاعره ... وهنا صلى يعقوب صلاة مؤثرة ، قال فيها :

"يا إله أبى إبراهيم ، وإله أبى اسحق ، الذى قال لى : أرجع إلى أرضك وإلى عشيرتك، فأحسن إليك . صغير أنا عن جميع الطوائف وجميع الأمانة التى صنعت إلى عبدك. فأبى بعصاى عبرت هذا الأردن ، والآن قد صرت جيشين . نجنى من يد أختي ، من يد عيسو . لأنى خائف منه أن يأتى ويضربنى الأم مع البنين . وأنت قد قلت : إبنى أحسن إليك ، وأجعل نسلك كرمل البحر الذى لا يعد من الكثرة " (تك ٣٢: ٩ - ١٢) . وبات هناك فى تلك الليلة .

ونلاحظ فى صلاة أبينا يعقوب :

إنه ضعيف ، ويعترف لله بضعفه . وهو خائف ، ويعترف أمام الله بخوفه ، وهو أيضاً يعترف بإحسانات الله إليه . ويعترف بأنه صغير عنها أى لا يستحقها . كذلك هو يذكر الله بوعوده له أنه سيجعل نسله كرمل البحر فى الكثرة . فكيف يتحقق هذا الوعد، إن جاء عيسو فضرب الأم مع البنين . وهو فى كل ذلك يطلب المعونة قائلاً "نجنى من يد أختي.. لأنى خائف منه" .

ما أعجب هذا الأمر ، أن يطلب أخ النجاة من أخيه .

ولكن الطبيعة البشرية هي هكذا : إن دخلها الشر ، يمكن أن يؤذي الأخ أخاه : حدث هذا حينما قام قابيل على هابيل فقتله (تك ٤ : ٨) . وحينما قال عيسو "أقتل يعقوب أخى" (تك ٢٧ : ٤١) . وهكذا فعل فيما بعد أخوة يوسف الذين "احتالوا عليه ليميتوه" (تك ٣٧ : ١٨) . لولا أن أنقذه يهوذا من القتل ، فباعه أخوته لقافلة من الإسماعيليين (تك ٣٧ : ٢٦ ، ٢٨) . وأمر أيشالوم غلمانه فقتلوا أمنون أخاه (٢ صم ١٣ : ٢٨ ، ٢٩) . وفى الكتاب المقدس أمثلة أخرى لا داعى لذكرها الآن .

نرجع إلى قصة أبينا يعقوب فى خوفه من أخيه عيسو . فنقول كما أنه أرسل إليه رسلاً ، وحاول استرضاءه بعبارتى (سيدى ، وعبدك) ، واستئذانه فى المجئ ، وإخباره بما له من غنم وبقر وأبناء وجوار ، حتى لا يفاجأ بهذا .. فإنه أيضاً : حاول استرضاء أخيه بالهدايا . وكان كريماً فى هداياه .

أرسل إليه "مئتى عنز وعشرين تيساً . مئتى نعجة وعشرين كبشاً . ثلاثين ناقة مرضعة وأولادها . أربعين بقرة وعشرة ثيران . عشرين أتاناً وعشرة حمير . ودفعتها إلى أيدى عبيده قطعياً قطعياً على حدة" ، ليجتازوا أمامه ، جاعلين فسحة بين قطع وقطع . (تك ٣٢ : ١٤ - ١٦) . وقال "استعطف وجهه بالهدية السائرة أمامى ، وبعد ذلك أنظر وجهه" (تك ٣٢ : ٢٠) . الظاهر أن الله أراد أن ينقى أملاك يعقوب مما أخذه من لابان .

والعجيب أن يعقوب لم يخف عن أحد إحترامه (لسيده) عيسو ، وخوفه منه .

فعل هذا كما قلنا مع الرسل الذين أرسلهم إليه . وفعل كذلك مع العبيد الذين حملوا الهدايا . "أمر الأول قائلاً : إذا صادفك عيسو أخى ، وسألك قائلاً : لمن أنت؟ وإلى أين تذهب؟ ولمن هذا الذى قدامك ؟ تقول : لعبدك يعقوب . هو هدية مرسله لسيدى عيسو . وها هو وراعنا " . وبمثل هذا الكلام أمر الثانى والثالث وجميع الساترين وراء القطعان (تك ٣٢ : ١٧ - ١٩) .

مباركة الله له

كان لابد من بركة قوية تصحبه ، قبل المرحلة الأخيرة إلى اللقاء . عبر بأولاده وزوجتيه وجاريته وكل ماله عبر مخاضة يبق ، ثم بقى وحده ، منتظراً عمل الله ... أراد الله أن يرفع معنويات هذا الخائف ، بأن يريه أنه يمكن أن يصارع ويغلب .

فظهر له في هيئة إنسان ، يمكن ليعقوب أن يصارعه ويغلبه . تماماً كأب يداعب طفله، ويظهر لهذا الطفل أنه يستطيع أن يغلبه فيفرح !.. وبدا أن يعقوب كان قوياً في مصارعة . وطلب منه صاحب الرؤيا أن يطلقه ، ويعقوب يجيب : لا أطلقك حتى تباركني . فباركه . ولكن ضربه على حق فخذه ، فصار يجمع عليه .

كان الله يريد أن يفرح بانتصاره ، ولكن لا يكون إنتصاره سبب كبرياء له ...
لذلك سمح له أن ينتصر ، وغُيِّرَ اسمه إلى إسرائيل ، قائلًا له "لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت " (تك ٣٢: ٢٢ - ٢٨) . ثم ضربه على حق فخذه ...
ودعا يعقوب اسم المكان "فنينيل " قائلًا "لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسي" (تك ٣٢: ٣٠) .

كم مرة ظهر الله لهذا الضعيف ليقويه ، وينقذه من خوفه .

لقاء عجيب للأخوين

لا الرؤيا التي رآها يعقوب أفقدته تواضعه ، ولا البركة التي نالها من الله . فلما رأى عيسو مقبلاً معه أربعمائة رجل ، قَسَمَ أسرته إلى ثلاثة أقسام : الجاريتين وأولادهما أولاً ، ليكونوا في مقدمة المواجهة . ثم لبنة وأولادهما وراءهم ، ثم راحيل ويوسف أخيراً ... لكى تسجد كل مجموعة منهم أمام عيسو أخيه . "أما هو فاجتاز قدامهم، وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى اقترب إلى أخيه " (تك ٣٣: ٣) .

وهنا حدث أمر عجيب غير متوقع ، انتصر فيه تواضع يعقوب على قسوة عيسو !!

"فركض عيسو للقاءه ، وعانقه ، ووقع على عنقه وقبله ، وبكى " (تك ٣٣: ٤) .

لاشك أن يعقوب كان يحسب ألف حساب لهذا اللقاء ، ويتصور أخطاراً مخيفة تحيط به . أما أن يركض عيسو للقاءه وقبله ، فذلك أمر عجيب ما كان يتصوره !.. أما بكاء عيسو الجبار ، على عنق أخيه يعقوب الذي أخذ منه البكورية والبركة ، فهذا هو العجب العجائب !!..

كان الله يعمل في قلب عيسو من الداخل ، وكان يعقوب يسترضيه بتواضعه .

وسجد كل أفراد أسرة يعقوب أمام عيسو ، فسأل يعقوب : ماذا منك كل هذا الجيش الذي صادفته ؟ فأجاب بتواضع "لأجد نعمة في عيني سيدي" . وحاول عيسو أن يتمتع عن قبول هدية يعقوب . فأجابه ذاك " إن وجدت نعمة في عينيك، تأخذ هديتي من يدي . لأنى

رأيت وجهك كما يرى وجه الله ، فرضيت على " (تك ٣٣ : ١٠) . وألح عليه فأخذ ...

حقاً ، إن "الجواب اللين يصرف الغضب" (أم ١٥ : ١) . وهكذا كانت كلمات يعقوب .

لقد استخدم يعقوب مع عيسو كل الوسائل الممكنة : أرسل رسلاً قدامه ، وأرسل هدايا كثيرة ، واستخدم التواضع العميق ، في عبارتي سيدي وعبدك ، وفي السجود أمامه هو وكل أسرته ، وفي كلمات الاستعطاف "لأجد نعمة في عيني سيدي" "رأيت وجهك كما يرى وجه الله"

أمران لم يشأ يعقوب أن يستخدمهما أبداً ، وهما الكبرياء ، ومقابلة العنف بالعنف .

لم يذكر إطلاقاً أنه صاحب البركة والمواعيد الإلهية . ولم يضع أمامه عبارة : "كن سيدي لأخوتك ، وليسجد لك بنو أمك" (تك ٢٧ : ٢٩) . ولم يغتر بما رآه من رؤى ، وما سمعه من عبارات الحفظ . ولم يضع في ذهنه إطلاقاً أن يستعد لمقابلة العنف بالعنف . فقد كان باستمرار يشعر بضعفه .

كما أنه استخدم أسلوب الحكمة في استعداده للقاء أخيه .

ولما دعاه عيسو أن يذهباً معاً ، فضّل أن يسير وراءه ، معتذراً بالغنم المرضعة ، وبأنه لا بد أن يسير على مهل . لأن سيره وراء أخيه ، على مهله ، أكثر أمناً ...
ومرّ ذلك اليوم الرهيب العجيب على خير .

أَبُونَا يَعْقُوبُ مَعَ مَشَاكِلِ أَوْلَادِهِ

تحدثنا عن مشاكل زوجتيه ، وصراعهما في إنجاب الأبناء .

ونود الآن أن نتحدث عن مشاكل هؤلاء الأبناء ، وقد كبروا وصاروا رجالاً ، بعد عشرين سنة قضاها مع خاله لابان (تك ٣١ : ٤١) ، وسنوات أخرى بعد انفصاله عن لابان ، حتى أن يوسف ابنه الأصغر حينما حدثت مشكلته مع أخوته كان عمره ١٧ سنة (تك ٣٧ : ٢) .

وكانت لهم أيضاً أخت اسمها دينة ، وصارت في سن يسمح لها بالزواج (تك ٣٤ :

٨) ..

فماذا كانت مشاكل هؤلاء الأبناء لما كبروا . نذكر هنا أهمها :

١ - عدم عدله في محبته لأولاده .

٢ - مشكلة رأوبين البكر مع سرية أبيه .

٣ - مشكلة دينة . وقتل شمعون ولاوى لكل بيت شكيم .

٤ - مشكلة يوسف وإضطهاد أخوته له .

٥ - مشكلة يهوذا مع كخته ثamar .

وقد كان موقف أبينا يعقوب مع كل مشاكل أبنائه موقفاً ضعيفاً ...

مشاكله مع أخيه عيسو ، ومع خاله لابان ، كان يحلها بالحيلة مع الاحتفاظ بضعفه ..

سواء في الحيلة التي اشترى بها بكورية عيسو بأكلة عدس (تك ٢٤ : ٢٦ - ٣٤) ، أو

الحيلة التي خدع بها أباه ليأخذ البركة بدلاً من عيسو . وفي هذه أيضاً كان يعقوب ضعيفاً

أمام أمه رفقة (تك ٢٧) . وكذلك بالحيلة أخذ الغنم من لابان ، وليس بالقوة (تك ٣٠) .

مشكلة دينة

حدث أنه لما نجا من أخيه عيسو ، أنه "أتى إلى مدينة شكيم التى فى أرض كنعان.. وابتاع قطعة الحقل التى نصب فيها خيمته من يد بنى حمور أبى شكيم" (تك ٣٣: ١٨ ، ١٩). "وأقام هناك مذبحاً" ...

من المعروف أن الكنعانيين كانوا أشراراً ، ويعبدون الأصنام . فلماذا يا يعقوب تذهب إلى هناك لتستقر؟ لعله يقول : قد أقيمت هناك مذبحاً !.. لعله أراد أن يجمع بين عبادة الله ومعاشرة الناس الأشرار !! ولم يأخذ درساً من قصة لوط فى سادوم ، والقياس مع الفارق.. فماذا حدث له ولأبنائه فى شكيم ؟

خرجت ابنته دينة ، لتتظر بنات الأرض ، فنظرها شكيم وأحبها .. (تك ٣٤: ١ ، ٢) . إنه واحد من أولاد الأرض . رآها وأحبها . وأخطأ إليها ونجسها وأذلها . وكانت مشكلة أصطدم بها يعقوب . ولما سمع بالخبر ، يقول الكتاب إنه سكت إلى أن جاء أبنأوه من الحقل . أما أبنأوه فعزموا على أن يقتلوا شكيم وأباه وكل أهل بيته ...

حمور عرض أن يعطوا دينة لابنه شكيم زوجة ، ووافق على كل ما يعرضونه من شروط ، قائلاً "دعونى أجد نعمة فى أعينكم . فالذى تقولون لى أعطى " ...

أما أبناء يعقوب فبمكر اشترطوا أن يختن كل ذكر فى المدينة ، لأنهم لا يمكنهم أن يعطوا أختهم لرجل أغلف .. وقبل حمور وشكيم هذا الشرط ..

اختتن كل ذكور المدينة . وإذ كانوا متوجعين ، أخذ شمعون ولاوى كل منهما سيفه وأتيا على المدينة بأمن . وقتلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم بحد السيف . ونهبوا كل ما فى المدينة ...

فماذا فعل يعقوب ؟ ... مجرد توبيخ لشمعون ولاوى !

قال لهما "كدرتمانى بتكريهكما إياى عند سكان الأرض الكنعانيين والفرزيين ، وأنا نفر قليل . فيجتمعون على ويضربونى أنا وبيتى" (تك ٣٤: ٣٠) ... لم يوبخهما على الغدر والمكر وقتل أناس بينهم عهد وأمان !! إنما كان سبب توبيخه لهما هو ضعفه وخوفه .

أما هما فلم يعترفا بما ارتكبا من خطأ ، إنما بررا ذلك بقولهما لأبيهما "أنظير زانية يفعل بأختنا؟!" مع أن الناس سلكوا معهم بأسلوب ارقى من أسلوبهما !!

وكان لابد ليعقوب أن يترك تلك الأرض ويرحل .

على أنه قبل أن يموت، وحينما حان الوقت ليبارك أولاده، تذكر خطيئة شمعون ولاوى. فقال "شمعون ولاوى أخوان. آلات ظلم سيوفهما. فى مجلسهما لا تدخل نفسى. بمجمعهما لا تتحد كرامتى. لأنهما فى غضبهما قتلأ إنساناً، وفى رضاها عرقبا ثوراً. ملعون غضبهما فإنه شديد، وسخطهما فإنه قاسٍ..". (تك ٤٩: ٥-٧) .

فقال له الله قم اصعد إلى بيت إيل، وأقم هناك. واصنع هناك مذبحاً لله الذى ظهر لك، حين هربت من وجه عيسو أخيك " (تك ٣٥: ١) .

لو كان يعقوب من بادئ الأمر قد ذهب إلى بيت إيل ، ولم يسكن فى شكيم فى أرض الكنعانيين ، ما كانت دينة قد تتجست ، وما كان شمعون ولاوى قد ارتكبا ما ارتكباه من غدر وقتل ...

كل هذا يعطينا درساً فى اختيار البيئة التى نسكن فيها .. لأنه نتيجة السكنى فى بيئة لابان الذى يعبد الأصنام (تك ٣١: ٣٠) ، وفى بيئة للكنعانيين .. نسمع عبارة عجيبة سجلها الكتاب ، استعداداً للذهاب إلى بيت إيل .. وهى :

"فقال يعقوب لبنيه ولكل من كان معه: اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وابدلوا ثيابكم" (تك ٣٥: ٢) .

إنها عبارة روحية يقولها لأبنائه ، وهو ذاهب إلى أرض مقدسة . ولكن لماذا لم يقلها من قبل؟ ولماذا لم يفتش بنفسه ، إن كانت توجد معهم أصنام، ينزعها منهم؟ يقول الكتاب "فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى فى أيديهم، والأقراط التى فى آذانهم. فطمرها يعقوب تحت البطمه التى عند شكيم" (تك ٣٥: ٤) .

فلما تخلص من أصنام أفراد أسرته ، ولما ذهب إلى بيت إيل وبنى مذبحاً للرب هناك، نقرأ بعد هذا أنه "ظهر الله ليعقوب أيضاً .. وباركه" (تك ٣٥: ٩) . فدشن يعقوب مكاناً للرب هناك: نصب عموداً فى المكان الذى فيه تكلم معه الرب، وسكب عليه سكبياً ، وصب عليه زيتاً . ودعا إسم المكان بيت إيل (تك ٣٥: ١٤، ١٥) ...

خطية رأوبين

حدث بعد موت راحيل ، أن رأوبين بكر يعقوب "ذهب وأضطجع مع بلهة سرية أبيه" (تك ٣٥: ٢٢) . وبلهة هذه تعتبر فى درجة أمه ، لأنها امرأة أبيه، وهى أم أخويه دان

ونفتالى (تك: ٣٥ : ٢٥) .

يسجل الكتاب أن يعقوب سمع ما فعله راوبين (تك: ٣٥ : ٢٢) .. ولكنه لم يفعل شيئاً،

ولم يؤنب راوبين!

كل ما فى الأمر أن أبانا يعقوب قبل موته . وفيما هو يخبر أبناءه بما يصيبهم فى آخر الأيام، قال "راوبين، أنت بكرى قوتى وأول قدرتى، فضل الرفعة وفضل العز . فائراً كالماء، لا تتفضل . لأنك صعدت على مضجع أبيك، حينئذ دنسته . على فراشى صعد" (تك: ٤٩ : ٣ ، ٤) .

وهكذا نرى أن مجد البكورية ، لم يكن مقياسه بالسن .

راوبين هو البكر حسب السن ، ولكنه لا يتفضل .. ما كان له ولا لنسله نصيب فى عظمة الكهنوت ولا فى عظمة الملك . ولم تكن له الهيبة التى يقود بها اخوته، لما أرادوا التخلص من يوسف (تك: ٣٧ : ٢٢ - ٢٩) .

يهودا وكنته ثامار

"أخذ يهوذا زوجة ليكره عير ، إسمها ثامار . وكان عير بكر يهوذا شريراً فى عيني الرب، فألماته الرب" (تك: ٣٨ : ٦ ، ٧) . ورفض ابنه الثانى أونان أن يقيم نسلاً لأخيه من ثامار ، فألماته الرب أيضاً (تك: ٣٨ : ٨ - ١٠) . ولما لم يعط يهوذا لثامار ابنه الثالث شيله ، دبرت له حيلة لتسقطه معها ، وتتجب منه نسلاً !!

بعد موت امرأة يهوذا ، ذهب إلى ثامار ، وفى الطريق رأى امرأة حسبها زانية ، فدخل إليها وزنى معها ، وهو لا يعرف أنها ثامار ، لأنها كانت تغطى وجهها (تك: ٣٨) . واكتشف الأمر أخيراً ، وأنجبت منه توأمين هما فارص وزراح . واعترف يهوذا وقال "هى أبر منى، لأنى لم أعطيها لشيله إبنى" .

تميزه فى محبته لأولاده

كما كان أبونا يعقوب يحب راحيل أكثر من محبته لأختها لينة، وقد سبب هذا صراعاً بين الأخنتين ومشاكل عديدة ...

كذلك أحب ابنى راحيل يوسف وبنيامين أكثر من أبناء لينة ، ومن باقى الأبناء . وقد سبب هذا مشاكل سوف نرويها .

أحب يوسف فمنحه قميصاً ملوناً سبب حسد أخوته ، وأحبه فبكى عليه كل أيامه .

وأحبه حتى في ميراثه ، فمنحه الضعف ، سبطين هما افرايم ومنسى .

وأحب بنيامين بعد يوسف ، وظهر ذلك في قصة إرساله إلى مصر . ولكن محبته لبنيامين لم تسبب مشاكل مع أخوته ، بل دافعوا عنه بكل قوتهم أمام يوسف .

يوسف وأخوته

أما مشكلة يوسف بن يعقوب مع أخوته الذين تحايّلوا لكي يقتلوه ، فسوف نخصص لها فصلاً خاصاً من هذا الكتاب (من ص ٧٠ - إلى ص ٧٧) .

وحيثما نتحدث عن يوسف ، نتحدث عن فاصل في حياة يعقوب يقسمها إلى قسمين:

حياة يعقوب قبل أن تبدأ قصة يوسف ، والنصف الثاني من حياته حينما بدأ طريق

لقاؤه مع يوسف. بل إن هذا النصف الثاني أصبح جزءاً من حياة يوسف .

فلنبداً إذن قصة يوسف ...

تأملات في حياة
يوسف الصديق



بإتجاب البنين استراح أبونا يعقوب أبو الآباء من الصراع بين زوجتيه ليئة وراحيل ولكنه دخل في مرحلة صراع أخرى في محيط الأبناء .

نلاحظ أنه كما أن يعقوب أحب راحيل أكثر من ليئة ، كذلك أحب إبنى راحيل يوسف وبنيامين ، أكثر من جميع أبناء ليئة . على أن الله - تبارك اسمه - عوض ليئة عن هذا الأمر ، فجعل السلطة كلها في نسل ليئة . إذ جعل الكهنوت في سبط لاوى وهو ابن ليئة ، وجعل الملك في سبط يهوذا ، وهو أيضاً ابن ليئة . بل أن السيد المسيح نفسه ولد من سبط يهوذا ، أى من نسل ليئة كذلك .

يوسف هو أول ابن ولد ليعقوب من راحيل . وبولادته بدأت مرحلة هامة في تاريخ هذه الأسرة ، بحيث تحول تاريخها من أبينا يعقوب إلى ابنه يوسف . وأصبح علينا أن نتحدث عن يوسف باعتباره عنصراً أساسياً ، ثم نعود أخيراً إلى أبينا يعقوب .

شخصية يوسف

تميزت شخصية يوسف بعدة أمور منها :

- ١ - كان إنساناً محبوباً .
- ٢ - كان ناجحاً ، وحسن التكبير . وكان الرب معه .
- ٣ - كان مثلاً في العفة .
- ٤ - كان رجل أحلام ، كما كان مفسراً للأحلام .
- ٥ - كان صبوراً ، حتى حول الله الشر إلى خير .

بالتجارب البنين استراح أبونا يعقوب أبو الآباء من الصراع بين زوجتيه ليئة وراحيل. ولكنه دخل في مرحلة صراع أخرى في محيط الأبناء .

نلاحظ أنه كما أن يعقوب أحب راحيل أكثر من ليئة ، كذلك أحب إبنى راحيل يوسف وبنيامين ، أكثر من جميع أبناء ليئة . على أن الله - تبارك اسمه - عوض ليئة عن هذا الأمر ، فجعل السلطة كلها في نسل ليئة . إذ جعل الكهنوت في سبط لاوى وهو ابن ليئة ، وجعل الملك في سبط يهوذا ، وهو أيضاً ابن ليئة . بل أن السيد المسيح نفسه ولد من سبط يهوذا ، أى من نسل ليئة كذلك .

يوسف هو أول ابن ولد ليعقوب من راحيل . وبولادته بدأت مرحلة هامة في تاريخ هذه الأسرة ، بحيث تحول تاريخها من أبينا يعقوب إلى إبنه يوسف .

وأصبح علينا أن نتحدث عن يوسف باعتباره عنصراً أساسياً ، ثم نعود أخيراً إلى أبينا يعقوب .

شخصية يوسف

تميزت شخصية يوسف بعدة أمور منها :

- ١ - كان إنساناً محبوباً .
- ٢ - كان ناجحاً ، وحسن التدبير . وكان الرب معه .
- ٣ - كان مثلاً في العفة .
- ٤ - كان رجل أحلام ، كما كان مفسراً للأحلام .
- ٥ - كان صبوراً ، حتى حول الله الشر إلى خير .

وفى السجن أيضاً كان موضع محبة وثقة المسجونين . وهكذا وثق به رئيس سقاة
فرعون ورئيس خبازيه ، وقصا عليه حلميهما لكى يفسرهما لهما ...
٤ - وكان يوسف محبوباً من فرعون أيضاً :

"وحسن كلام يوسف فى عيني فرعون وفى عيون جميع عبيده . فقال فرعون لعبيده :
هل نجد مثل هذا ، رجلاً فيه روح الله" ثم قال فرعون ليوسف : انظر قد جعلتك على
كل أرض مصر . وخلص فرعون خاتمه من يده ، وجعله فى يد يوسف . وألبسه ثياب
بوص ، ووضع طوقاً من ذهب حول عنقه . وأركبه فى مركبته الثانية . ونادوا أمامه
أركعوا" وقال فرعون ليوسف : بدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر"
(تك ٤١ : ٣٧ - ٤٤) .

★ وعن هذا الأمر قال يوسف لأخوته فيما بعد إن الله "جعلنى أباً لفرعون ، وسيداً على
كل بيته ، ومتسلطاً على كل أرض مصر" (تك ٤٥ : ٨) .

٥ - على أن محبة يعقوب ليوسف ، سببت له حسداً فى قلوب أخوته
ذلك لأنه "صنع له قميصاً ملوناً . فلما رأى أخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع
أخوته ، ابغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام" (تك ٣٧ : ٣ ، ٤) . وهنا نلمح خطأ فى آيينا
يعقوب : فكما أنه لم يعدل بين زوجتيه فى المعاملة ، كذلك لم يعدل بين أبنائه . وكان لذلك
آثره الذى تسبب فى عداوة أخوة يوسف له ، وصلت إلى محاولتهم قتله (تك ٣٧ : ١٨) .
وهكذا صار يعقوب عشرة لبنيه فى تصرفه ...

موضوع القميص الملون درس يقدمه لنا الكتاب :

درس فى أن الأب يجب ألا يثير الأخوة بمعاملة واحد منهم أفضل من الباقين ، حتى لا
يحققوا عليه . كذلك على الأم أن تكون عادلة فى معاملتها لأبنائها . فإن أنجبت ابناً جديداً لا
يصح أن تعطيه حناناً مبالغاً فيه أمام الطفل الأكبر منه ، بل تعطى الطفل الأكبر فرصة أن
يحب الصغير ، وكأنه لعبة جديدة أحضرها له والداه .

لا تظنوا أن الأطفال ملائكة لا يتأثرون ولا يغيرون .

ما أكثر العراك الذى يقوم بين الأطفال من أجل لعبة يتميز بها أحدهم ، أو بسبب
ملابس ، أو نوع من الحلوى ، أو لون من التذليل أو المعاملة المفضلة .. لذلك إن كان
لك طفلان ، وأحضرت لهما لعبة ، اشترى من كل لعبة اثنتين متشابهتين ، لكل واحد منهما
واحدة تشبه الأخرى . وإن قلت لواحد منهما كلمة مديح ، قل مثلاً أو ما يشبهها للآخر .

حتى لا تثير حسد أحدهما على الآخر ...

تصوروا ، حتى رسل المسيح تعبوا من هذه النقطة ذاتها ، وبلا سبب من جهة المسيح !!

فلما أتت أم إينى زبدى إلى السيد المسيح وقالت له "قل أن يجلس إينى هذان : واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في ملكوتك" .. ومع أن السيد لم يستجب لهذه الطلبية، قال لها "أما الجلوس عن يميني وعن يساري ، فليس لى أن أعطيه إلا للذين أعد لهم من أبى" (مت ٢٠ : ٢١ - ٢٣) .. إلا أنه على الرغم من هذا، يقول الإنجيل "فلما سمع العشرة (الرسل)، إغتاضوا من أجل الأخوين" (مت ٢٠ : ٢٤) ..

فإن كان هذا قد حدث مع الرسل ، فماذا إذن عن باقى الناس !
إن الإنسان الكامل هو الذى يحب الكل . إن الله يشرق على الصالحين والطالحين، ويمطر على الأبرار والآخرار . إن أنجح أب وأنجح مربى ، هو الذى يشعر كل واحد أن له محبة خاصة فى قلبه هو بالذات .. وهذا ما ينبغى أن يراعيه خدام التربية الكنسية سواء مع الأطفال أو مع الشبان ...
لقد فرح يوسف بالقميص الملون، ولم يدرك أنه سيكون سبباً لمشاكله . وأبوه يعقوب ظن أنه بهذا القميص يقدم خيراً لإبنه، ولم يدرك أنه سيقدم به التجارب والضيقات لهذا الإبن الصغير المحبوب!

خطأ فى طفولة يوسف

لم يكن القميص الملون هو السبب الوحيد لتجارب يوسف ..
إنما كان حديثه عن أحلامه هو سبب آخر ...
ربما كان إنساناً بسيطاً من النوع الذى يقال عنه إن "الذى على قلبه، هو على لسانه".
ولكن فى الواقع إن أحاديثه عن أحلامه سببت حسداً من أخوته له ، بل أيضاً سببت لهم غيظاً .. لأن أحلام يوسف كانت تحمل أفضلية له ، وتقدماً له عليهم!! وهكذا يقول الكتاب:

"وحلم يوسف حلماً وأخبر أخوته، فازدادوا أيضاً بغضاً له" (تك ٣٧ : ٥) .
قال حلمت "ها نحن حازمون حزماً فى الحقل. وإذا حزمتمى قامت وانتصبت . فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى" . فماذا كان رد الفعل عند أخوته لما سمعوا حلمه هذا؟

لقد قالوا له "أعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً؟" "وإزدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه " (تك ٣٧: ٦ - ٨) .

لم تكن حكمة منه أن يخبر أخوته بحلم يخضعهم فيه له .

والأسوأ من هذا أنه حلم حتماً آخر له نفس المغزى، وقصه على أخوته أيضاً (تك ٧:

٩) : قال "إني قد حلمت حتماً أيضاً . وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى" . فحسده أخوته . أما أبوه فحفظ الأمر فى قلبه . غير أنه انتهره أمام أخوته، وقال له "ما هذا الحلم الذى حلمت؟" هل نأتى أنا وأمك وأخوتك ونسجد لك؟" .

أحلام التمجيد يليق بها الإخفاء ، حتى لا تثير حسداً .

بل من الصالح أن يخفيها الإنسان عن نفسه ، أى لا يعود يتذكرها ، حتى لا تسبب له ارتفاع القلب من الداخل .

ربما أن يوسف لم يضع فى قلبه مثل تلك النتائج .. أو أنه لم يستطع أن يحتمل إخفاء الحلم ، دون أن يخبر به غيره وببساطة فعل، ولكنها كانت بساطة غير حكيمة ... على أن أمر هذه الأحلام لم يكن بسيطاً على أخوته . فلما ذهب لكى يفقدهم فى المرعى . ورأوه من بعيد، واحتالوا أن يمتسوه، "قال بعضهم لبعض: هوذا هذا صاحب الأحلام قادم" (تك ٣٧: ١٨ ، ١٩) .

خطأ آخر وقع فيه يوسف ، وهو توصيل النعمة .

كان ابن سبع عشرة سنة ، وكان يرعى الغنم مع أخوته أبناء إمرأتى أبيه (جاريثيه بلهه وزلفة) . يقول الكتاب "وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم" (تك ٣٧: ٢) . كان خطأ أن يفعل هذا ، ولو أن الكتاب لم يذكر لنا النتائج السيئة لهذا الخطأ ... نقطة أخرى فى شخصية يوسف ، وهى أنه :

كان ناجحاً وكان الرب معه

ينطبق عليه ما قيل فى المزمور الأول عن الرجل البار إنه "كل ما عمله ينجح فيه" (مز ١: ٣) .

كان ناجحاً كغلام يرعى الغنم . وقد نجح فى افتقاده لأخوته وطلب سلامتهم (تك ٣٧: ١٢ - ١٧) . وكان يوسف ناجحاً فى بيت فوطيفار . فقبل عنه "وكان الرب مع يوسف، فكان رجلاً ناجحاً . وكانت بركة الرب فى بيت المصرى .

يوسف الصديق وكم فتاسى من إخوته

يتحدث الناس عن محبة الأخوة ، ولكنها ليست قاعدة ثابتة. فلم توجد هذه المحبة عند قايين الذى قتل هابيل أخاه . ولم توجد عند عيسو الذى قال : أقوم وأقتل يعقوب أخى" (تك: ٢٧ : ٤١) . كذلك لم توجد عند أبشالوم الذى قتل أخاه أمنون (٢صم ١٣ : ٢٨ - ٣٢) . وحدث هذا أيضاً بالنسبة إلى أخوة يوسف الذين أرادوا أن يقتلوه (تك: ٣٧ : ١٨ - ٢٠) .

تدرج إلى أسوأ

بدأت القصة بحسدهم له بسبب قميصه الملون .

قال الكتاب إنهم أبغضوه لأن أباهم أحبه أكثر منهم "ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام" (تك: ٣٧ : ٤) . كان يمكنهم أن يكسبوا محبة أبيهم بأعمال فاضلة وبطريقة سليمة . ولكنهم لم يفعلوا . وكان رد فعلهم هو بغضتهم لأخيهم !! وكان بإمكان يعقوب أبيهم أن يعالج الأمر بأن يهديهم قمصاناً كأخيهم، فى يوم عيد مثلاً . ولكنه لم يفعل ، وبدأت الأمور تتعقد وزادت بغضتهم لأخيهم بسبب أحلامه وكلامه .

حلم يوسف حلماً أن حزمهم سجدت لحزمته . وأخبر أخوته بذلك الحلم . وهنا لم يقابلوه بالبغضة الصامتة، وإنما واجهوه بمشاعرهم . وقالوا له : ألعك تملك علينا ملكاً وتتسلط علينا تسلطاً . وإزدادوا أيضاً بغضاً له بسبب أحلامه ، ومن أجل كلامه" (تك: ٣٧ : ٥ - ٩) . وهنا أخطأ يوسف بحديثه عن حلمه .

هناك أمور حسنة. إن تحدثنا عنها ، تجلب لنا حسد الناس ، وأيضاً حسد الشياطين.

وبخاصة لو كانت هذه الأمور تحمل مقارنة بيننا وبين الغير . مثل حلم يوسف الذى يعنى سجد أخوته له . كان ينبغى أن يكتبه ، فلا يحدثهم عنه . وإن لم يستطع الكتمان ، كان يمكنه أن يقص الحلم على أبيه وحده . . ولكنه لم يفعل . بل إنه لما حلم حلماً آخر يحمل نفس المعنى " قصه أيضاً على أخوته . وقال إنى حلمت حلماً أيضاً . وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى " . وفى هذه المرة انتهره أبوه وقال له : ما هذا الحلم الذى حلمت . هل نأتى أنا وأمك ونسجد لك؟! وحسده أخوته (تك ٣٧ : ٩ - ١١) .

ثم يأخذ يوسف درساً من مشاعر أخوته بسبب حلمه الأول . وأضاف خطباً على النار كلها دروس لنا ، لكى لا نتحدث عن الأمور التى يكون فيها مظهر عظمة لنا ، حتى لو كانت من الناحية الروحية ، كما يتحدث البعض عن اختبارات روحية تحمل لونا من الفخر ! ما أعظم السيدة العذراء التى لم تتحدث إطلاقاً عن أمجاد البشارة بالحبلى المقدس ، وما كان فيها من ظهورات ملائكة ، ووعود إلهية ، وتطويب القديسة أليصابات لها ، ومباركة سمعان الشيخ وحنة النبية.. بل "كانت تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها" (لو ٢ : ٥١) .

رؤى العذراء وأحلام يوسف النجار (مت ١ ، ٢) كانت كلها من الله ، كما كانت أحلام يوسف الصديق . ولكن حديث يوسف عن أحلامه سبب له ضرراً ، لأنها كانت تحمل تفوقه على أخوته الذين حدثهم بها ... تضايقوا منه حتى أسموه (صاحب الأحلام) استهزاء به (تك ٣٧ : ١٩) ...

يوسف أبغضه أخوته ، ولكنه لم يبغضهم .

على الرغم من أنهم "لم يكلموه بسلام" . ثم أظهروا بغضهم بعد حديثه عن حلمه الأول.. كانت وصية الرب "أحسنوا إلى مبغضيك" (مت ٥ : ٤٤) موجودة فى قلب يوسف قبل أن يقولها السيد المسيح بحوالى ألفى عام! كما نفذ وصية "لا تزن" قبل أن نكتب على لوحى الشريعة بألف وأربعمائة عام. لأن قلبه كان نقياً ، يعمل بوصية الله قبل أن يقولها الله علانية !! كان يتفهم مشيئة الله ، بضميره بالشرعية الطبيعية .

فلما أوصاه أبوه بافتقاد أخوته ، خرج يسأل عن سلامتهم .

كانوا يرعون الغنم وتأخروا . فخرج يفتش عليهم فى الجبال والتلال ، ووصل من حمور إلى شكيم ، حتى تاه وضل الطريق . ولم يعتذر بصعوبة الأمر (تك ٣٧ : ١٥) . وأرشده رجل إلى الطريق ووصل إلى إخوته . فلم يقدرُوا له هذا الجميل ، بل حينما

ابصروه قالوا : "هوذا صاحب الأحلام قادم . هلمّ نقتله" (تك ٣٧ : ١٩ ، ٢٠) .

مجموعة خطايا

فكروا فى قتله ، وتحايّلوا على ذلك . وقالوا "نطرحه فى إحدى الآبار ، ونقول إن وحشاً رديئاً قد أكله . فنرى ماذا تكون أحلامه!!"

وهكذا يكونون قد فكروا فى القتل ، وفى الخديعة والغش ، وفى الإساءة إلى أبيهم الذى كانت نفسه متعلقة بابنه يوسف ، بالإضافة إلى حسدهم لأخيهم ، وبغضتهم له .. وبهذا يكونون قد وقعوا فى مجموعة من الخطايا ...

بل أكثر من هذا يكونون قد قاوموا مشيئة الله !

لأنه إن كان الله قد أعلن مشيئته فى الحلم ، أن يسجدوا ليوسف ، فلا بد أنهم سيسجدون له ، مهما فكروا فى قتله .. وعبرة "ترى ماذا تكون أحلامه" ، معناها أيضاً "ماذا ستكون مشيئة الله؟" . أى أنهم سوف يعطلون تلك المشيئة الإلهية بقتلهم يوسف!! يشبه هذا الأمر قول عيسو "أقتل يعقوب أخى" - بينما كانت مشيئة الله أن يصير كل منهما شعباً . والكبير (أى عيسو) يستعبد للصغير (أى يعقوب) (تك ٢٥ : ٢٣) .

إن أخوة يوسف لم يكونوا فقط ضد يوسف ، بل كانوا بالأكثر ضد الله . ولم يضعوا الله أمامهم ولم يؤمنوا أنه قادر على تنفيذ مشيئته مهما فعلوا بأخيهم ، ومهما تحايّلوا . غير أن رأوبين أخاهم حاول أن ينقذ يوسف . فقال لهم "لا نقتله .. لا تسفكوا دماً . اطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية .. وكان يفكر أن ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه" (تك ٣٧ : ٢١ ، ٢٢) .

ضمير نفى ضعيف

رأوبين كان هنا يمثل هنا القلب النقى ، ولكنه ضعيف .

على الرغم من أن رأوبين كانت له أخطاؤه الأخرى ، إلا أنه هنا لم يكن موافقاً لأخوته على جريمة القتل . وكان فى قلبه حنو نحو أخيه ، وفاء نحو أبيه . ولكن لم تكن له القوة التى بها يصرح بذلك ، ولا القوة التى يقول بها لأخوته إنهم مخطئون . على الرغم من أنه كان البكر ، وله بذلك سيطرة على أخوته . ولكنه كان أضعف من أن يقول اتحق ، وأضعف من أن يدافع عن يوسف .

كان ضعيفاً مع أن الموقف كان سهلاً .

كانوا أحد عشر أخاً (لأن بنيامين الصغير لم يكن بينهم) . ويبدو أن يهوذا أيضاً كان رافضاً لعملية القتل ، كما ظهر فيما بعد بقوله "ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه؟! تعلموا قنبيعه للإسماعيليين . ولا تكن أيدينا عليه ، لأنه أخونا ولحمنا . فسمع له أخوته" (تك ٣٧: ٢٦ ، ٢٧) . فلو أن رأوبين رفض قتل يوسف ، ومعه يهوذا ، وطبعاً يوسف ، تصبح هناك ثلاثة آراء ضد ثمانية . وكان ممكناً إقناع إثنين آخرين ، وتكون الآراء مناصفة تقريباً.. وعلى أية الأمور كانوا سيخافون من إنكشاف جريمتهم ، حتى لو كان رأوبين وحده ضدهم أو رأوبين ومعه يهوذا .

وهكذا كان رأوبين يمثل الحق الضعيف ، والمتناقض . ويمثل الحلول المتوسطة غير الروحية .

لأنه إن كان قتل يوسف خطية ، فإن إلقاءه في البئر خطية أيضاً ، وربما تؤدي أيضاً إلى موته في البرية ، إن لم يجد فرصة لإنقاذه. وأيضاً موت يوسف ربما يؤدي إلى حزن أبيه وموته . وعلى الأقل فقدان بركته . إن رأوبين يقدم حلاً متوسطاً ضعيفاً ، ليست فيه قوة الحق ، ولا قوة الصدق ، ولا قوة البر ، فلو مات يوسف في البئر (مع أنها كانت فارغة) يكون قد وصل معهم إلى غرضهم . ولو خرج يوسف حياً وأخبر أباه تكون فضيحة لهم .. على أية الحالات ، وافقوه على رأيه . وخلصوا عن يوسف قميصه الملون وألقوه في البئر (تك ٣٧: ٢٣ ، ٢٤) .

" ألقوا يوسف في البئر وجلسوا ليأكلوا طعماً " .

لست أدرى بأى ضمير جلسوا ليأكلوا ، وأخوهم في البئر؟! بل لعلمهم كانوا مسرورين بما فعلوه !! أما رأوبين فكان قد تركهم إلى حين . وهذه كانت نقطة ضعف أخرى فيه ، إذ كيف يترك الغلام في أيدي من يبغضونه .

ضمائر ضالة رخيصة

وفي غيبة رأوبين باعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة ، فأتى الإسماعيليون به إلى مصر .

بعشرين من الفضة ؟ توزع على عشرة أخوة : أى أن كل واحد منهم يأخذ قطعتين فقط مقابل بيع أخيه!! قطعة تملكه نهائياً ، وقطعة تورقه ليلاً!! ويكون ماذا قد انتفع ؟

وكيف يوازن بين ضميره وثمنه؟! حقاً ما أرخص الإنسان؟! ما أرخص البائع والمبايع؟! إن الشيطان حينما يجد ضمير الإنسان رخيصاً ، يمكن أن يشتريه بأتفه الأثمان . هكذا كان ضمير يهوذا رخيصاً فباع سيده بثلاثين من الفضة، وكان ضمير أخوة يوسف رخيصاً، فباعوا أخاهم بعشرين من الفضة !!

وهل هذا كان ثمن من قالوا عنه إنه أخونا لحمنا (تك ٣٧ : ٢٧)؟

أقصى ما وصلوا إليه من الرحمة والحنو، أنهم باعوه بدلاً من أن يقتلوه . كانت هذه هي مقاييس الرحمة عندهم . وكان هذا هو معنى الأخوة عندهم، حينما قالوا عن أخيهما إنه لحمنا!! هل هذا هو ثمنه ومعاملته ؟!

فكروا أن يستبدلوا خطية كبيرة بخطية صغيرة .

أو ما يعتبرونها صغيرة في نظرهم ، أن يبيع أخوهم كعبد ، ويصير عبداً عند من يشتريه فاقداً لحريته !! وبدأوا بهذه تجارة للرقيق! بل أن ضميرهم قد استراح إنهم فعلوا خيراً ! ولم يفكروا مطلقاً ماذا سيكون مصير يوسف بعد هذا: أين سيعيش ، ومع من؟ وكيف يكون مصيره؟

يوسف في التجربة

أما يوسف فكان صامتاً خلال كل ذلك . ولم يقاوم الشر حسب وصية السيد المسيح بعد ذلك (مت ٥ : ٣٩) .

خلعوا عنه قميصه وألقوه في البئر . وترك نفسه فريسة في أيديهم . لم يقاوم ولم يناقش . كان كشاه تساق إلى الذبح ، وكنعجة صامتة أمام جازيها . لم يفتح فاه" (اش ٥٣ : ٧) . ولما باعوه أيضاً، ظل صامتاً . ولم يقاوم . وعلى رأى أحد القديسين ، حينما سأل بعض الأخوة "من باع يوسف؟" فأجابوا "باعه أخوته" . فأجاب "كلا . بل باعه تواضعه . لأنه لو قال أنا أخوهم" ما كان قد بيع ..."

يوسف يمثل الشخص الذي لا يدافع عن نفسه .

لم يدافع عن نفسه أمام أخوته، لما نزعوا قميصه ، ولما ألقوه في البئر ، ولما باعوه كعبد . ولم يدافع عن نفسه أمام فوطيفار لما ألقاه في السجن ، وقد اتهمته المرأة ظلماً . بل في كل ذلك ترك الله لكي يدافع عنه . كما قال موسى فيما بعد "الرب يقاوم عنكم، وأنتم تصمتون" (خر ١٤ : ١٤) . وفعلاً دافع الرب عنه ...

نتائج الخطيئة

وبعد بيع يوسف عاد رأوبين ، ولم يجد يوسف في البئر ، فمزق ثيابه وقال "وأنا إلى أين أذهب؟" (تك ٣٧ : ٢٩ ، ٣٠) .

استيقظ أخيراً ضميره الضعيف . ورأى أن تفكيره البشري لم ينفعه في إنقاذ أخيه . فبأى وجه سيقابل أباه ، وهو البكر المسئول عن قيادة أخوته في غيبة أبيهم . إلى أين يذهب إذن ؟ كيف سيواجه أباه . ماذا يقول له ؟ هوذا خطيتهم نحر أخيهام قد تمت . وها هم يواجهون نتيجتها ، أو إحدى نتائجها .

إن تمزيق رأوبين لثيابه ، يذكرنا بغسل بيلاطس ليديه !

وذلك حينما غسل يديه وقال عن السيد المسيح "أنا بريء من دم هذا البار " .. لم يكن بريئاً . وتمزيق الثياب كان يتم في الأمور الخطيرة جداً . مثلما مزق عزرا ثيابه لما رأى شعب الله قد خان خيائته وتزوج بالأجنبيات اللاتى يقدره بعيداً عن الله (عز ٩ : ٣) . ومزق رئيس الكهنة ثيابه ، لما اعتبر كلام المسيح تجديفاً حينما اعترف أنه ابن الله" (مت ٢٦ : ٦٣ - ٦٥) .

ولكن ماذا ينتفع رأوبين بتمزيق ثيابه ؟! لابد من حل عملي .

وهنا اشترك معهم في خطيئة أخرى يغطون بها خطيتهم في بيع يوسف .

فعملوا على أن يخدعوا أباهم : أخذوا قميص يوسف الملون . وذبخوا تيساً من الماعز ، وغمسوا القميص في الدم . وأحضره إلى أبيهم . وقالوا له "وجدنا هذا . حقق أقميص ابنك أم لا . فتحقق وقال : هو قميص إبني . وحش ردي قد قتله . افترس يوسف افتراساً.." (تك ٣٧ : ٣١ - ٣٣) .

إن كثيرين إذا وقعوا في خطيئة ، تقودهم إلى التورط في خطايا أخرى .

وهكذا وقع أخوة يوسف في الكذب وخديعة أبيهم . وبهذا بعدما تخلصوا من يوسف تخلصوا من قميصه الملون الذى كان يثير حسدهم . ولم تنكشف خديعتهم لأبيهم يعقوب ، الذى سبق من قبل وخدع أباه اسحق ، حينما ألبسته أمه رفقه شبه قميص من جلد الماعز (تك ٢٧ : ١٦) .

مشاعر الأوب

"مزق يعقوب ثيابه ، ووضع مسحاً على حقويه . وناح على ابنه أياًماً كثيرة . فقام

جميع بنيه ليعزوه . فلبى أن يتعزى .. (تك ٣٧ : ٣٤ ، ٣٥) .

لاشك أن أبانا يعقوب فكر في قلبه أنه كان السبب في موت ابنه يوسف .. وكيف أنه أرسله في البرية وحده ليفتقد اخوته ، وهو فتى صغير في السابعة عشرة من عمره ، وليس في السن الذي يحمل هذه المسؤولية الكبيرة ، بينما أخوته الكبار قد تأخروا في المجئ . فإن كان الكبار في خطورة ، فكم بالأولى أخوهم الأصغر منهم .. لذلك نأح على ابنه ، وأبى أن يتعزى ..

نسى يعقوب أحلام يوسف التي فيها سيسجد أخوته له . وفي نسيانه صدق أن يوسف قد مات واقتصره وحش ردى ، فبكى ومزق ثيابه . ومن قبل كان أبوه اسحق قد نسى وعد الله لرفقة أن ابنها الكبير سيستبد للصغير (أى يعقوب) . فوعد بمباركة عيسو بدلاً من يعقوب . ولما تنكر قال : نعم ، وليكن مباركاً" (تك ٢٧ : ٤ ، ٣٣) .
للعجيب أن أبناء يعقوب جاعوا ليعزوه في موت يوسف .

بأى كلام جاعوا ليعزوه ، وهم الذين تسببوا في كل حزنه وبكائه ، وهم الذين دبروا الخديعة ، ويعرفون تماماً أن يوسف حى في عبوديته ولم يمت حتى يعزوا أباه فيه . لاشك أنه ينطبق عليهم المثل القائل "يقتل القليل ويمشى في جنازته" .. أى أنهم تسببوا في حزن أبيهم ، وجاعوا يعزونه في حزنه!! وهكذا أضافوا إلى خطاياهم الكثيرة السابقة خطيئة الرياء ...

التدبير الإلهي

وفيما كانوا يفعلون هذا للشر كله ، كان الرب يدبر للخير ليوسف .

وقد لخص يوسف هذه القصة في قوله لأخوته فيما بعد "لأنتم قسنتم لى شراً . أما الله فقصد به خيراً .. ليحيى شعباً كثيراً (تك ٥٠ : ٢٠) .

إن الله كان يريد أن يجعل يوسف متسلطاً على كل أرض مصر ، يدبر أموراً أثناء المجاعة لإحياء أهلها والشعوب المحيطة . ولكن يوسف كان فتى صغيراً مثلاً محبوباً من أبيه ، محسوداً من أخوته . فأراد الرب أن يدرجه بالتجارب حتى يصلح لتلك المسؤولية التي أعدها له .. وهكذا سمح الله أن يفعل أخوة يوسف به كل ما فعلوه ، إذ أصبح ذلك جزءاً من الخطة الإلهية التي أعدها لتكريب يوسف .

يوسف رمزا للمسيح

وكان يوسف في كثير من هذه الأمور رمزا للسيد المسيح .

يوسف كان محبوباً من أبيه ، والمسيح قال عنه الأب : هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت (مت ٣) . يوسف ذهب لافتقاد سلامة أخوته . والسيد المسيح جاء لخلاص العالم . يوسف جاء لأخوته فلم يقبلوه ، وقالوا هلم نقتله . والمسيح جاء إلى خاصته ، وخاصته لم تقبله بل أسلموه للقتل . يوسف خانته أخوته وباعوه بعشرين من الفضة . والمسيح خانته تلميذه وأسلمه بثلاثين من الفضة . يوسف صار عبداً . والمسيح أخذ شكل العبد (فى ٢: ٧) . يوسف خرج من كل ذلك منتصراً ممجداً . والسيد المسيح صعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب .

فوائد روحية

نستفيد من مؤامرات أخوة يوسف ضده دروساً كثيرة نذكر من بينها ٣ نقاط :

١ - حياة الإنسان هي في يد الله ، وليست في يد الناس .

لا يهمنا ما يدبره الناس لنا ، إنما ما يريد الله لنا .

لم يكن المهم بالنسبة إلى يوسف مشاعر أخوته من نحوه ، وما يدبرونه ضده من مؤامرات . لقد حسدوه ، وأبغضوه ، وأرادوا قتله ، وألقوه في البئر ، وباعوه كعبد . ولكن كل ذلك لم يؤثر على مصير حياته . ذلك لأن الله كان يريد الخير له . وهكذا أنت ، آمن بأن حياتك في يد الله ، وثق أنه "لن يقع بك أحد ليؤذيك" (أع ١٨: ١٠) .

٢ - درس آخر : هو أننا لا نتعبنا البداية المؤلمة . المهم هو النهاية السعيدة .

وكما قال الكتاب "نهاية أمر خير من بدايته" (جا ٧: ٨) .

كانت البداية بالنسبة إلى يوسف تأمر أخوته عليه ، وبيعه كعبد ، واتهام ظالم من امرأة فوطيفار ، وألقاؤه في السجن لمدة طويلة . أما النهاية فكانت سعيدة . خرج من السجن إلى القصر ، وصار أباً لفرعون ومتسلطاً على كل أرض مصر " (تك ٤٥: ٨) .

٣ - ما حدث ليوسف كان بركة له ، وتأديباً لأبيه .

فكما خدع أباه اسحق ، خدعه أولاده . وكان هذا تأديباً له ، إذ بقي نائحاً . وكانت أيام غربته على الأرض قليلة وردية" (تك ٤٧: ٩) .

يوسف الصديق فى بيت فوطيفار وفى السجن

يوسف فى بيت فوطيفار

أخذ يوسف إلى مصر ، عبداً فى بيت فوطيفار رئيس الشرطة. وهنا يقول الكتاب :
"وكان الرب مع يوسف" (تك ٣٩ : ٢) .

ولعلك تسأل : كيف كان الرب معه ، وقد أصابه ما أصابه ، وقد ترك الرب أخوة يوسف يفعلون به ما فعلوه حتى صار عبداً. ونفس هذا الأمر تعجب منه جدعون ، حينما قال له ملاك الرب "الرب معك يا جبار البأس .." فأجاب جدعون "أسألك يا سيدى: إذا كان الرب معنا، فكيف أصابتنا كل هذه (البلايا) ؟! وأين كل عجائبه التى أخبرنا بها أبائونا؟! (قض ٦ : ١٢ ، ١٣) .

أما الإجابة على مثل هذا التعجب ، فهى :
إن الرب لم يمنع التجارب عن يوسف، إنما كان معه فيها.
لم يخرجها منها ، وإنما حفظه داخلها .

كان الرب معه ، حينما فكر أخوته فى قتله . لم يمنع عنه تأمرهم، بل حفظه من القتل، فتحول إلى الإلقاء فى البئر . وكان معه فى البئر ، فأخرجوه منها وباعوه

للإسماعيليين . وكان معه إذ باعه الإسماعيليون إلى فوطيفار ، لأن خيراً كثيراً كان ينتظره هناك.. فيقول الكتاب :

البركة

"بارك الله في بيت فوطيفار ، من أجل يوسف" .

وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت وفي الحقل" (تك ٣٩ : ٥) . وهكذا عندما دخل يوسف بيت فوطيفار ، دخلت البركة بيت فوطيفار . وهذا ما اعتدنا أن نقرأه في سير القديسين. إذ كانت حياتهم بركة لغيرهم . بل كانوا هم أنفسهم بركة حيثما حلوا. كما قال الله لأبينا إبراهيم : "أباركك .. وتكون بركة" (تك ١٢ : ٢) . بنفس المنطق نقول إن إيليا النبي كان بركة في بيت أرملة صيدة، وملاً الخير بيتها أثناء المجاعة (مل ١٧ : ١٥ ، ١٦) . وكان أليشع النبي بركة في بيت المرأة الشونمية . وبسببه أعطاهما الله إيناً، وأقام الإبن من الموت (٢ مل ٤) .

ولكن كيف ولماذا كان يوسف بركة في بيت فوطيفار ؟ يقول الكتاب :

"ورأى سيده أن الرب معه، وأن كل ما يصنع كان الرب ينجحه" (تك ٣٩ : ٣) .

إنها بركة من الله أن يجعل أولاده ناجحين في كل شيء. ويكون كل منهم حسبما ورد في المزمور الأول "وكل ما يعمل ينجح فيه" (مز ١ : ٣) . كذلك يليق بأولاد الله أن يعرفوا ويعترفوا أن الله هو سبب نجاحهم . هو الذي ينجهم ، وليس ذكاؤهم أو قدرتهم أو خبرتهم ...

وماذا كانت نتيجة إ نجاح الرب ليوسف . يقول الكتاب إن يوسف وجد نعمة في عيني سيده "فوكّله على كل بيته وعلى كل ما كان له" (تك ٣٩ : ٤) .

أي أن يوسف لم يصبح مجرد عبد ، بل صار الوكيل المتسلط على كل شيء . إذن الله لم يمنع عنه التجربة التي جعلته عبداً. ولكن داخل التجربة جعله سيداً وهو عبد! أما سيده فقد "ترك كل ما كان له في يد يوسف. ولم يكن معه يعرف شيئاً إلا الخبز الذي يأكل" (تك ٣٩ : ٦) .. وطبعاً لم يشعر يوسف مطلقاً بذل العبودية التي يشعر بها عبيد آخرون. لأنه صار وكيلاً لا عبداً ...

إنه درس لنا : أننا لا نفكر في الوضع الذي نحن فيه، مادام الرب معنا في هذا الوضع .

دانيال النبى أيضاً ، كان أحد أسرى الحرب فى بابل فى قصر نبوخذنصر الملك . ولكن الله كان معه . ومع ذلك جاء الوقت الذى حدث فيه أن "نبوخذ نصر خرّ على وجهه وسجد لدانيال.." (دانيال: ٢١: ٤٦) . ونال دانيال كرامة بعد أن أخرجه من جب الأسود . "ونجح فى ملك داريوس وفى ملك كورش الفارسى" (دانيال: ٦: ٢٨) . ونفس الوضع بالنسبة إلى نحميا الذى كان أيضاً أسير حرب وساقياً فى قصر الملك أرتخشستا . ونال نعمة فى عينيه فساعدته على بناء أسوار أورشليم (نح: ٢) . وبصورة مشابهة تقريباً ، كان يوسف عبداً ذا كرامة فى بيت فوطيفار .

يوسف العفيف

ولكن وسط هذه الكرامة ، حسده الشيطان ، وبدأ يعمل ...

نعم ، إن وجدت نفسك فى راحة ، احترس من حسد الشياطين . فالشيطان لم يسترح حينما وجد يوسف فى راحة . وبدأ يحيك له تجربة لم يتعرض لها يوسف من قبل . كان يوسف شاباً فى عنفوان شبابه . حينما ألقاه أخوته فى البئر كان عمره ١٧ سنة تقريباً (تك: ٣٧: ٢) . وعندما حدثت له التجربة فى بيت فوطيفار كان فى العشرين أو العشرينات من عمره "وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر" (تك: ٣٩: ٦) . وهنا بدأ الشيطان يحيك له الشباك من جهة امرأة فوطيفار خصى فرعون (تك: ٣٩: ١) .

"وحدث أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف" (تك: ٣٩: ٧)

بدأت تشتهيه وتطلب منه الخطية ، وتلح فى ذلك . وتكلمه يوماً فيوماً .. ولم يسمح لها" (تك: ٣٩: ١٠) . وهنا كانت نقاوة يوسف درساً لجميع الأجيال .. إن الشهوة قد تكون صعبة المقاومة فى هذه السن . وحينما يسعى هو إليها ، يحتاج إلى جهاد نفسه . ولكن حينما تسعى الشهوة إليه ، وتلح عليه ، تكون المقاومة أصعب ...

أما يوسف فقد حفظ عفته وطهارته ، ولم يلتبس لنفسه الأعداء فى الخطأ ...

وما أكثر الأعداء: المرأة هى سيده ولها سلطان عليه، ويمكن أن تسبب له مشاكل واضراراً إذا رفضها وشعرت أن كرامتها قد أهدمت. ومع ذلك فقد رفض، ولكنها ألحت عليه يوماً فيوماً. فاعتذر أولاً بوفاته نحو زوجها الذى هو سيده. وقال لها "هوذا سيدى لا يعرف معى ما فى البيت. وكل ما له قد دفعه إلى يدي. ليس هو فى هذا البيت أعظم منى. ولم يمسك عنى شيئاً غيرك، لأنك إمرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم..!" (تك: ٣٩: ٨، ٩).

ولكن المرأة لم تأبه بحق زوجها على يوسف، ولا بحق زوجها عليها، واستمرت فى إلحاحها . وهنا ارتفع يوسف إلى مستوى أعلى فى الحوار ، وهو حق الله . فقال :
 "كيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطئ إلى الله " (تك ٣٩ : ٩)

ذلك الثوب

نظمت هذه القصيدة

فى سنة ١٩٤٦

ألعل هذه الأفكار كانت تجول بذهن يوسف ، أو تتوالت

على شفتيه، وقد أمسكت سيده بثوبه ...

هوذا الثوب خذيته	إن قلبى ليس فيه
أنا لا أملك هذا	الثوب بل لا أعيه
هو من مالك أنت	لك أن تسترجعه
فانزعى الثوب إذا شئت	وإن شئت اتركه
إنما قلبى لقد	أقسمت ألا تدخليه
أنا لا أملك قلبى	وكذا لن تملكه
إنه ملك لربى	وقد استودعني
عبثاً قربك منه	هوذا قلبى أسأليه
✽	✽
زوجك الغائب قد أعهدنى مالا وعرضا	بيتسه طولا وعرضا
بل وقد ملكنى فى	كيف أهوى فيه نقضا
إنه عهد وثيق	نا أخون العهد فرضا
وإذا ما كنت خوا	وبهذا الشر أرضى
كيف أعصى الله ربى	طارحاً تقواى أرضا
ناسياً عقلى ودينى	إن أخلاقك مرضى
فأبعدى عنى دعينى	بى وقد أخلعتني
أى فخر لك فى ثوب	إن قلبى ليس فيه
هوذا الثوب خذيته	✽
✽	✽

أه لو تدرين ما أعلم عن إبراهيم جدى
 قصة الطاعة والمذبح والابن المهد
 طاعة غنى بها العباد
 لم من عهد لعهد
 طاعة أورثها قد
 أصبحت عنوان مجدى
 طاعة لله لا للشمر
 إن الشرير يردى
 * * *

طاعة للروح لا للجسم أن الجسم عبدي
 ساطع الله حتى
 لو أطعت الله وحدي
 كيف أعصى الله منعا
 دأ لهذا الشر الكريه
 هوذا الثوب خذيه
 إن قلبى ليس فيه
 * * *

هذا هو يوسف البار الذى فى طهارة قلبه وعفة جسده يرتفع فوق مستوى الخطية ،
 وقال عبارته الخالدة : "كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟" (تك ٣٩ : ٩) .
 اعتبر أن الخطية موجهة أصلاً إلى الله ، وليست فقط ضد امرأة فوطيفار ، ولا ضد
 زوجها . وهذا هو المستوى العالى فى الروحانيات ، الذى عرفه داود بعد سقوطه . فقال للرب
 فى مزمور التوبة "إليك وحك أخطأت . والشر قدامك صنعت" (مز ٥٠ : ٤) . أما يوسف
 فقد كانت هذه الحقيقة أمامه قبل السقوط ، فمنعته عن السقوط . فاعتبر الخطية شراً عظيماً ،
 واعتبرها موجهة إلى الله .

كان هذا الشاب البتول أكثر عفة من داود الذى كانت له ثمانى زوجات!!
 كانت الطهارة التى فى قلبه ، أقوى من الإغراء الذى يحاربه من الخارج . وقد عرف
 بضميره النقى أن الزنى شر عظيم ، قبل أن يسلم الله لوحى الشريعة إلى موسى النبى ،
 وفيها الوصية السابعة "لا تزنى" (خر ٢٠ : ١٤) . لقد نفذ الوصية قبل أن تكتب فى التوراة
 بمئات السنين . وكان فى ذلك شاهداً على الشريعة الطبيعية ، شريعة الضمير النقى التى
 سبقت الشريعة المكتوبة بآلاف السنين ...

دفع ثمن برّه

لقد فضل يوسف نقاوة القلب والجسد ، مهما تكون النتائج ، أو نقول :

فضل أن يكون أميناً لله ، ولو ألقى في السجن !

فضل العار والسمعة الرديئة ، والإتهام الظالم الذي اتهمته به امرأة فوطيفار ، عن أن يخطئ إلى الله .. فضل أن يفقد محبة سيده ، الذي وكله على كل بيته ، والذي كان يثق أن يد الله معه ، وكان يعتقد أنه بركة لبيته ...!

من أجل أن يستمر طاهراً ، فقد مركزه ، وفقد سمعته ، وفقد حريته .. فقد الراحة والغنى ، وألقى في السجن ...
حقاً إن البرّ له ثمن يدفعه الأبرار .

ولم يكن يوسف مجرد درس في الطهارة والعفة ، بل هو أيضاً درس في اتباع الموقف السليم ، مهما كانت النتائج صعبة . ومثله كان يوحنا المعمدان ، حينما قال لهيرونس "لا يحلّ لك أن تأخذ امرأة أخيك.." (مت ١٤ : ٤) ، ولو كانت النتيجة قطع رأسه .

الغريب أن تلك المرأة الفاسدة ، أخذت موقف المعتدى عليها!!

لما أمسكته من ثوبه ، فترك ثوبه في يدها وهرب ، "نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: أنظروا. قد جاء إلينا رجل عبراني ليداعبنا. دخل إلى ليضطجع معي ، فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت ، أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج!!" ولما رجع زوجها إلى بيته ، كلمته بنفس الكلام (تك ٣٩ : ١٣ - ١٨)!

واتطبق عليها المثل القائل "ضربني وبكى ، وسبق فاشتكى!"

حاولت اغراءه فلم تستطع . فأرادت أن تنتقم منه من جهة ، وتغطي خطيتها من جهة أخرى . وهكذا أضافت إلى فسادها الظلم والقسوة والكذب والرياء .. وما أكثر ما تعرض بعض القديسين لمثل هذا الإتهام .. مثال ذلك القديس مقاريوس الكبير ، والقديس افرام السرياني .. حقاً إن الباطل له طرقه وحيله وقوته !!

وبدا أن الباطل قد انتصر على الحق ، من جهة فوطيفار أيضاً.

نعم ، من العناصر المؤلمة في هذه المأساة : أن فوطيفار لم يفحص الأمر . لم يحقق ، لم يدقق ، لم يسأل يوسف عما حدث . بل صدّق كلام إمرأته . ولم يذكر بركة يوسف السابقة وأمانته ، وكيف أن الله كان معه . وكانت أذنا فوطيفار أكثر تأثراً عليه من عقله . وهنا يقول الكتاب :

"فحمى غضبه .. وأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن" (تك ٣٩ : ١٩ ، ٢٠) .

إنه رئيس شرطة فرعون (تك ٣٩ : ١) ، في مركز كبير يماثل وزيراً للداخلية ، أو مديراً

للأمن العام. له سلطان أن يلقى فى السجن.. "وضع يوسف فى المكان الذى كان أسرى الملك محبوسين فيه".

ولم يدافع يوسف عن نفسه . وللمرة الثانية كان كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامئة أمام جازيها ، فلم يفتح فاه" (أش ٥٣ : ٧) ...

بل ربما كان احتقار سيده له ، أفسى عليه من السجن الذى يدخله ! إحتقاره له كشاب فاسد، خان الأمانة والثقة ، وتجراً على امرأة سيده الذى أحسن إليه !!

يوسف فى السجن

إلقاه رئيس الشرطة فى السجن . وتصوروا سجيناً موسى عليه من رئيس الشرطة، ومتهماً بأنه حاول أن يذس شرف زوجة رئيس الشرطة!! مثل هذا كيف تكون معاملته فى السجن ؟! أترى كان يجول فى ذهنه وقتذاك ، أهذه عاقبة الطهارة والعفة؟! وأين حماية الله له ؟!

والعجيب أنه بعد إلقائه فى السجن ، يقول الكتاب :

"وكان الرب مع يوسف ، وبسط إليه لطفاً" (تك ٣٩ : ٢١) .

وربما يتساءل البعض منا فى عجب : أى لطف هذا يارب ، الذى تحمل فيه يوسف الإتهام الظالم ، والسمعة الرديئة ، والسجن، مع الطرد من وظيفته ؟! وكأنى بالله المحب يهمس فى قلب يوسف

"لا يهم أين توجد . المهم أن أكون معك حيثما توجد .

إن دخلت السجن ، فأنا فيه معك: أراك واحفظك ، وأبسط لك لطفاً . وكأنى بيوسف الوديع يجيب : مبارك أنت يارب . أنا بالإيمان مطمئن لرعايتك. ليس فقط داخل السجن، بل أيضاً "إن سرت فى وادى ظل الموت، لا أخاف شراً ، لأنك أنت معى" (مز ٢٣) .

إن الحرية خارج السجن، هى السجن الحقيقى، إن كنت لست معى وأنا معك، إن كنت قد أطعت تلك المرأة وبعدت عنك. أما السمعة الرديئة التى ألصقوها بى، وما يقوله بيت فوطيفار عنى، فكلها أمور لا تهمنى . لأن كل ما يهمنى هو ما تقوله أنت يارب عنى ...

وفعلاً عاش يوسف فى السجن فى وضع ممتاز وعجيب، ربما لم يتمتع به سجين من

قبل . وفى ذلك يقول الكتاب :

"ولكن الرب كان مع يوسف ، وبسط إليه لطفاً . وجعل نعمة له فى عينى رئيس بيت

السجن . فدفع رئيس بيت السجن إلى يوسف جميع الأسرى الذين فى بيت السجن . وكل ما كانوا يعملون هناك ، كان هو العامل . ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما فى يده . لأن الرب كان معه . ومهما صنع كان الرب ينجحه " (تك ٣٩ : ٢١ - ٢٣) .

الله معه فى السجن

وكما كان يوسف فى بيت فوطيفار ، هو العبد المتمسك على كل شئ .. هكذا صار فى بيت السجن ، هو السجن المتمسك على كل شئ ...

وكما كان فوطيفار قد ترك كل شئ فى يديه ، هكذا أيضاً رئيس بيت السجن قد ترك كل شئ فى يديه . وكما كان فى بيت فوطيفار ، كل ما يعمل به ينجح فيه ، هكذا كان فى بيت السجن كل ما يعمل به ينجح فيه . والسبب فى كل ذلك أن الرب كان معه . وسنرى نفس الوضع حينما يلتقى بفرعون : سيترك فرعون أيضاً كل شئ فى يديه . وأيضاً كل ما يعمل به سينجح فيه ...

لم يكن يوسف السجن الوحيد ، الذى كان للرب معه فى سجنه ...

كان القديس بولس الرسول سجيناً ، وكان يصلى ويسبح الله فى سجنه . وقد نجاه الله من السجن (أع ١٦ : ٢٥ ، ٢٦) . وقد كتب كثيراً من رسائله فى السجن ...

وإن كان بولس الرسول قد كتب بعض رسائله فى السجن . ورسائله أملاها عليه الروح القدس الناطق فى الأنبياء ، إذن روح الله كان معه فى السجن .

وكان القديس بطرس الرسول سجيناً . وكان مطمئناً جداً ، لدرجة أنه نام نوماً ثقيلًا . حتى أن الملاك الذى أنقذه ، ضربه فى جنبه ليوقظه (أع ١٢ : ٦ ، ٧) .

وكان القديس يوحنا الرسول منفياً فى جزيرة بطمس . وكان الله معه . ورأى فى منفاه عرش الله وملائكته ، وكشف له الرب فى المنفى أشياء كثيرة .

إن أولاد الله لا يخافون السجن ، لأنها لا تسجن أرواحهم . لأن أرواحهم تكون مع الله ، يعزيها الله فى سجنهم .

حياة يوسف الصديق كانت فيها آلام . وكانت فيها أيضاً تعزيات ، وكان فيها عمل الله معه . والسجن كان هو الطريق الذى تعرف فيه يوسف على رئيس سقاة فرعون الذى كان معه فى السجن ، وعن طريقه تعرف على فرعون الذى أحبه وجعله متسلطاً على كل أرض مصر . فكيف حدث هذا ؟!

يوسف والأحلام

كان يوسف الصديق رجل أحلام، وكان أيضاً مفسراً للأحلام. أحلامه كانت بدء مشكلته مع أخوته حتى أنهم لما رأوه قداماً لافتردهم - فى بدء تأمرهم عليه - قالوا "هوذا صاحب الأحلام قائم. فالآن هلم نقتله .. فنرى ماذا تكون أحلامه!" (تك ٣٧: ١٩، ٢٠). وفعلوا كانت أحلامه من الله، وقد تحققت ...

أحلام من الله

والكتاب المقدس يرينا أن هناك أحلاماً كثيرة من الله . فى مشكلة أبينا ابراهيم ، لما قال عن سارة إنها أخته ، وأخذها ابيمالك، يقول الكتاب "فجاء الله فى حلم الليل . وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها، فإتها متزوجة ببعل .." (تك ٢٠: ٣) .. "وقال له الله فى الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا... فالآن رد امرأة الرجل، فإنه نبي فيصلى لأجلك فتحيا" (تك ٢٠: ٦، ٧). وفى (تك ٢٨: ١٢) أثناء هرب أبينا يعقوب من وجه أخيه عيسو، قيل عنه إنه "رأى حلماً. وإذا سلم منصوبة على الأرض، ورأسها يمس السماء. وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها فقال ... " ونلاحظ فى هذين الحلمين ، أن الله كلم أبيمالك فى حلم، وأنه كلم يعقوب فى حلم. وتحقق ما قيل فى الحلمين .

وفى (تك ٣١: ١٠-١٣) نرى أن الله قد كلم يعقوب فى حلم بخصوص الفحول المخططة والرقطاء . وفى نهايته قال له "أنا إله بيت إيل، حيث مسحت عموداً، حيث نذرت لى نذراً. الآن قم وأخرج من هذه الأرض، وارجع إلى أرض ميلادك".

وفى نفس الإصحاح ، لما أراد لابان أن يؤذى يعقوب، ظهر الله للابان فى حلم الليل لينذره . وفى هذا يقول الكتاب "وأتى الله إلى لابان الأرامى فى حلم الليل. وقال له : احترز من أن تكلم يعقوب بخير أو بشر" (تك ٣١: ٢٤) .

والسيد الرب قد صرح بأنه كان يكلم البعض فى الأحلام . فلما انتقد هارون ومريم أخاهما موسى . قال لهما الله مفضلاً موسى عليهما "إن كان منكم نبي للرب، فبالرؤيا استعلن له ، فى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا: بل هو أمين فى كل بيتى . فمأ إلى قم وعياناً أتكلم معه" (عد ١٢: ٦-٨) .

نعلم أيضاً أن الله كلم سليمان فى حلم ، إذ يقول الكتاب إنه "فى جبعون تراءى الرب لسليمان فى حلم ليلاً . وقال له : اسأل ماذا أعطيك.." (١مل ٣: ٥) . فطلب سليمان الفهم والحكمة ...

وسفر دانيال النبي يعطينا فكرة عن أحلام نبوخذ نصر الملك التى فسرها له دانيال النبي (دا ٢، ٤) . بل الأحلام التى رآها دانيال نفسه كما ورد فى (دا ٧، ٨) وغيرها، كانت وكلها من الله .

وسفر يوثيل النبي يعتبر هذه الأحلام من مواهب الله ومن عطايا الروح القدس، فيقول: "ويكون بعد ذلك أنى أسكب روحى على كل بشر. فيتنبأ بنوكم وبناتكم . ويحلم شيوخكم أحلاماً ، ويرى شبابكم رؤى" (يوثيل ٢: ٢٨) .

وفى العهد الجديد نقرأ عن أحلام يوسف النجار التى هى وحى من الله: "ملاك الرب قد ظهر فى حلم قائلاً : يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم إمرأتك. لأن الذى حبلى به فيها هو من الروح القدس" (مت ١: ٢٠). كذلك "ملاك الرب ظهر ليوسف فى حلم قائلاً: قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر" (مت ٢: ١٣) ثم "إذا ملك الرب قد ظهر فى حلم ليوسف فى مصر قائلاً : قم وخذ الصبى وأذهب إلى أرض إسرائيل ، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى" (مت ٢: ١٩ ، ٢٠) .

نقرأ أيضاً عن المجوس أنهم "إذ أوحى إليهم فى حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس، انصرفوا فى طريق أخرى إلى كورثهم " (مت ٢: ١٢) .

نعرف أيضاً أن زوجة بيلاطس البنطى أرسلت إليه أثناء محاكمته للسيد المسيح "قائلة: إياك وذلك البار، لأنى تألمت كثيراً جداً فى حلم من أجله " (مت ٢٧: ١٩) .

كل هذه وغيرها أحلام من الله ، لها هدف إلهى .

ولكن ليس معنى هذا أن كل الأحلام من الله ، وأنها تتحقق!

أَحْلَامُ لَيْسَتْ مِنْ اللَّهِ

هناك أحلام كثيرة ليست من الله : أحلام من أمور مترسبة في العقل الباطن . وأحلام من حالة الجسد أثناء النوم . وأحلام من الشياطين . وفي بستان الرهبان أمثلة كثيرة من الأحلام التي ليست من الله، ومن التي يراد بها تضليل من يسير وراءها ... وقد قيل في سفر زكريا النبي لأن الترافيم قد تكلموا بالباطل . والعرافون رأوا الكذب وأخبروا بأحلام كذب" (زك ١٠ : ٢) .

والرب نفسه أوصى من جهة تلك الأحلام المضللة قائلاً: "إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلماً، وأعطاك آية أو أعجوبة، ولو حدثت تلك الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها، قائلاً لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدوها. فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم. لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ..."
(تث ١٣ : ١-٣) .

أما عن ذلك الحالم حلماً، فيقول الرب في نفس الإصحاح: "وذلك النبي أو الحالم حلماً ، يُقتل لأنه تكلم بالزيف من وراء الرب إلهكم .. فتترعون الشر من بينكم" (تث ١٣ : ٥) .
يوحنا الدرجي (كليماكوس) يحذر أيضاً من الأحلام الكاذبة .

يُوسُفُ وَالْأَحْلَامُ

ما حلم به يوسف كان من الله . كان نبوءة . وقد تحققت .
حلم يوسف أن حزم أخوته سجدت لحزمتة . فقال له أخوته "ألعلك تملك علينا ملكاً، أم تتسلط علينا تسلطاً؟" (تك ٣٧ : ٨) . لم يصدقوا الحلم، ولم يعتبروه من الله. إنما إزدادوا بغضاً ليوسف.

ولما حلم أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له، لم يصدق أخوته هذا الحلم، ولم يعترفوا أنه من الله، بل حسدوا يوسف .

كان الحلمان رسالة من الله. لكنهم لم يتقبلوها . بل قاوموها!
وهكذا فكروا أن يقتلوا يوسف، باعتباره صاحب الأحلام (تك ٣٧ : ١٩، ٢٠) . أما أبوه فحفظ الأمر (تك ٣٧ : ١١) . ولكن عندما أخبره ابنائوه بأمر القميص الملون الملطخ بالدم،

وقالوا له "حقّ أهو قميص إبنك. تحققه وقال قميص إبنى هو. وحش ردئ أكله. افترس يوسف افتراساً . ومزق ثيابه ولبس مسحاً وناح على إبنه (تك: ٣٧ : ٣٢ - ٣٤) . ورفض أن يتعزى . وقال إبنى أنزل إلى إبنى ناثحاً إلى الهاوية ...

لقد نسى يعقوب حلمي يوسف وقتذاك . أما الله فاستمر يذكرهما .

هل يوسف أيضاً كان قد نسى الحلمين ، حينما بيع كعبد، وحينما ألقى في السجن ظلماً وطالت مدته فيه؟! أم اعتبرهما مجرد حلمين لا علاقة لهما بالواقع !!

حينما باعه أخوته كان عمره ١٧ سنة (تك: ٣٧ : ٢) . وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر" (تك: ٤١ : ٤٦) ... أى أنه قضى ١٣ سنة في العبودية وفي السجن .

فهل أنسته الـ ١٣ سنة وعود الله في الحلمين ؟

كل ما طلبه من رئيس السقاء زميله المسجون معه في بيت السجن أن يذكره أمام فرعون ليخرجه من بيت السجن الذى وضعوه فيه ظلماً، قائلاً له "تصنع إلىّ إحساناً ، وتذكرنى لفرعون، وتخرجنى من هذا البيت ، لأنى .. لم أفعل شيئاً حتى وضعونى في السجن" (تك: ٤٠ : ١٤ ، ١٥) . ولأن يوسف طلب هنا معونة بشرية، قيل في الرد عليها : "ولكن لم يذكر رئيس السقاء يوسف، بل نسيه" (تك: ٤٠ : ٣٣) .

ربما يوسف أرفقته سنوات الأكم الثلاث عشرة، فضعف أمامها وطلب من رئيس السقاء أن يذكره أمام فرعون . لذلك لم يذكره رئيس السقاء. ولكن الملائكة كانت بلاشك تذكره أمام الله. وإن كان رئيس السقاء تذكره بعد سنتين (تك: ٤١ : ١) في مناسبة أعدها الله بنفسه، بحيث يكون لها تأثيرها . فكيف كان ذلك؟

خطة الله الحكيمّة

كانت خطة الله أن يجعل يوسف متسلطاً على كل أرض مصر. وأن يأتى أخوة يوسف ويسجدوا له ، حسب وعده في الحلم .

ولكى يحدث هذا، كان لابد أن يتعرف فرعون على يوسف ويشق به ويجعله ثانياً له في المملكة . ولكى يحدث هذا، أرسل الله إلى فرعون أحلاماً ، وأعطى يوسف موهبة لتفسيرها. ولكى يرسل فرعون طالباً يوسف، سمح الله ليوسف أن يفسر حلمين لاثنتين يخدمان فرعون: أحدهما رئيس سقائه وثانيهما رئيس خبازيه . وقد دبر الله أن يكون

يوسف زميلاً لهما فى السجن . ولكى يدخل يوسف السجن ويلتقى بهما سمح الله أن تكيد ليوسف زوجة فوطيفار رئيس الشرطة . ولكى يتمكن يوسف من لقاء هذه المرأة ، سمح الله أن يُباع يوسف عبداً لفوطيفار . ولكى يُباع يوسف، سمح الله لأخوة يوسف أن يتآمروا ضده . وكسبب للتأمر أرسل الله أحلاماً ليوسف حسده بها أخوته، وفكروا أن يقتلوه، ثم خففوا الأمر فباعوه كعبد ...

وهكذا اجتاز يوسف فى ضيقات كثيرة ، بدأت بأحلامه، وانتهت بتفسيره لأحلام فرعون . وكانت هذه الضيقات هى الوسيلة التى أدت إلى تعجيد يوسف .

يوسف مفسر الأحلام

لاشك أنها موهبة من الله ليوسف . وقد نسبها يوسف إلى الله

★ عندما حلم رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، كل منهما حلماً ولم يجد من يعبره (أى يفسره) . "قال لهما يوسف: أليست لله التعبير؟ قصاً على" (تك ٤٠ : ٨) . فلم ينسب لنفسه المعرفة أو القدرة على تفسير الأحلام . إنما قال إنها لله .

★ وكان صريحاً صادقاً فى تفسيره .

قال لرئيس السقاة " إنها ثلاثة أيام، ويردك فرعون إلى مقامك، فتعطى كأس فرعون فى يده كالعادة الأولى حينما كنت ساقيه" (تك ٤٠ : ١٣) . "فلما رأى رئيس الخبازين أن يوسف قد عبر جيداً" أى أتى لرئيس السقاين بخبر طيب، قصّ عليه أيضاً حلمه، ظاناً أنه سيسمع نفس البشرى . ولكن يوسف لم يجامله، بل كلمه بصراحة قائلاً "فى ثلاثة أيام أيضاً ، يرفع فرعون رأسك عنك، ويعلقك على خشبة، وتأكل الطيور لحماً عنك" (تك ٤٠ : ١٩) .. وقد كان .

ولما حلم فرعون حلمين : أحدهما السبع بقرات السمينات التى أكلتها السبع بقرات الهزيلات . والثانى السبع سنابل الممتلئة التى ابتلعها السبع سنابل الرقيقة الملفوحة .. ولم يستطع كل سحرة مصر وحكمائها تفسير الحلمين . حينئذ تذكر رئيس السقاة يوسف، وقص خبره على فرعون ، فاستدعاه فرعون .

ونجد أن إسم الله استمر على لسان يوسف، فى حديثه مع فرعون . ونسب لله تفسير الحلمين ، خمس مرات .

★ لما قال له فرعون "أنا سمعت عنك قولاً إنك تسمع أحلاماً لتعبرها" أجاب يوسف

فرعون قائلاً "ليس لى . الله يجيب بسلامة فرعون" (تك ٤١ : ١٦) .

★ولما قص عليه فرعون الحلمين . قال له : "حلم فرعون واحد . قد أخبر الله فرعون بما هو صانع" (تك ٤١ : ٢٥) . وفسر حلم البقرات .

★وتفسيره لحلم السنابل ، كرر نفس العسارة "قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع" (تك ٤١ : ٢٨) ... فأرجع كل ما سيأتى فى المستقبل إلى تدبير الله . أما تفسير الحلم فهو ما اراد الله أن يظهره لفرعون . وهكذا اختفى يوسف ، لكى يظهر الله فى الصورة أمام فرعون .

★أما عن تكرار الحلم مرتين بنفس المعنى . فقد قال عنه يوسف "لأن الأمر مقرر من قبل الله . والله مسرع ليصنعه" (تك ٤١ : ٣٢) .

★ولم يكتفِ يوسف بتفسير الحلمين ، بل قدّم أيضاً النصيحة لفرعون فيما ينبغى أن يعمل ، من جهة أن يبحث عن رجل بصير وحكيم يجعله على أرض مصر : ليخزن فى سنى الرخاء ما يصبح ذخيرة فى سنى الجوع (تك ٤١ : ٣٣ - ٣٦) .

★وتكرار اسم الله ٥ مرات فى حديث يوسف مع فرعون ، جعل اسم الله يكون أيضاً على لسان فرعون ، فقال لعبيده عن يوسف "هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله! ثم قال ليوسف "بعد ما أعلمك الله كل هذا ، ليس بصير وحكيم مثلك" (تك ٤١ : ٣٨ ، ٣٩) . وسلّمه كل السلطة فى مصر .

إنقلب الهوان مجداً

وذلك بأن تحول يوسف السجين إلى ملك على كل مصر ... وقال له فرعون "بدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر" "أنظر قد جعلتك على كل أرض مصر" "وخلع فرعون خاتمه من يده ، وجعله فى يد يوسف . وألبسه ثياب بوص ، وجعل طوق ذهب فى عنقه . وأركبه فى مركبته الثانية . ونادوا أمامه اركعوا . وجعله على كل أرض مصر" (تك ٤١ : ٤٣) . ولعل من الذين ركعوا له ، فوطيفار سيده الأول !

كل ما كان يريده يوسف أن يخرج من السجن . وما كان يحلم بكل هذا . ولكن الله الكريم فى عطائه ، أعطاه ما لم يطلب ...

كيف إلتقى يوسف مع إخوته وأبيه

كان فى خطة الله، أن ينفذ يوسف من كل متاعبه. ولكننا نلاحظ فى كل أحداث القصة أن الله يسمح بأن تأتى التجربة، ثم ينفذ منها بالطريقة الإلهية فى الوقت المناسب .

عمل الله فى الوقت المناسب

طلب يوسف من رئيس السقاة أن يذكره أمام فرعون ليخرجه من بيت السجن (تك ٤٠ : ١٤) . ولكن رئيس السقاة "تسيه" (تك ٤٠ : ٢٣) . واستمر نسيانه لمدة سنتين .. والعجيب أن هذا النسيان كان فى صالح يوسف .. إلى أن أرسل الله حلمين لفرعون . وجمع فرعون كل الحكماء والسحرة ، فلم يستطيعوا تفسير الحلمين . وهنا تذكر رئيس السقاة يوسف الصديق ، وقصّ على فرعون حكمة يوسف فى تفسير الأحلام. وكان ذلك بتدبير إلهى لكى يرفع شأن يوسف ويعوضه عن أيام التعب .

وهنا نرى حكمة الله فى العمل فى الوقت المناسب .

★ لو أن رئيس السقاة ذكر يوسف أمام فرعون ، حالما رجع إلى منصبه، كان أقصى ما يصل إليه يوسف أن يخرج من السجن ، ثم لا يعلم إلى أين يذهب بعد ذلك .

★ كذلك لو أن فوطيفار لم يصدق إمرأته فى إتهامها الكاذب ليوسف، وقال لها إن هذا الشاب إنسان مبارك .. ولو أنه حقق فى الأمر جيداً واتضح له براءة يوسف، لكانت النتيجة هى بقاء يوسف عبداً أميناً فى بيت فوطيفار ! وما كان قد أصبح الثانى فى المملكة: يركع الكل أمامه ، ومن ضمنهم فوطيفار طبعاً . . "وبدونه لا يرفع إنسان يده ولا رجله فى كل أرض مصر" (تك ٤٠ : ٤٤) . وطبعاً فوطيفار أصبح كالباقين لا يرفع يده ولا رجله إلا بأمر يوسف .

★ كذلك أخوة يوسف : لو أن الله أنقذه من أيديهم وقتذاك، فلم يلقوه في البئر، ولم يبيعهوه كعبد .. لبقى يوسف طول عمره مجرد راع للغنم .
لذلك فإن تمنيات الإنسان شيء .. وما يعده الله له أعظم بكثير مما يتمنى، ولو عن طريق التجارب والمتاعب .

إن الله قد يسمح للخطاة أن يرتكبوا كل ما يشاؤون ضد أولاده. ويبدو كما لو كان الله ساكتاً لا يعمل...!! أو كما شكّا داود قائلاً للرب في المزمور "لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟" (مز ١٠: ١) ... ولكن في نفس الوقت الذي يظن فيه الإنسان المجرب أن الله بعيد عنه، يكون الله يدير كل شيء في صالحه. وكما قال الرسول "كل الأشياء تعمل معاً للخير، للذين يحبون الله" (رو ٨: ٢٨) .

يوسف وشهادته لله

وكما أن الله لم يتخل عن يوسف، كذلك يوسف لم يتخل عن الله .
ظل متمسكاً بالرب في كل المتاعب التي أصابته. وظل ثابتاً على إيمانه . وكان إسم الله على شفتيه في كل حديثه مع فرعون . لقد ذكر إسم الله أكثر من مرة أمامه (تك ٤١: ١٦، ٢٥، ٢٨، ٣٢) .. قال هذا وهو يعرف أن فرعون يعبد رع وآمون وإيزيس وأوزوريس وفتاح وغيرهم .. لكنه لم يقل أمامه سوى إسم الله (الوهم ويهوه) . على عكس أولئك الذين لا يذكرون إسم الله أمام الذين يعبدون غيره إما خجلاً أو خوفاً أو ضعفاً. لعل هذا يذكرنا بقول داود النبي للرب :

"تكلمت بشهادتك قدام الملوك ولم أخز" (مز ١١٩) .

أما الإنسان المخلص لإلهه ، إسم الله على لسانه أمام الكل .. هكذا كان يوسف . ونرى أن يوسف فيما بعد : لما رزقه الله بابنين، دعا إسم البكر منسى قائلاً : لأن الله أنساني كل تعبى .. . فلم ينس إسم الله في تسمية ابنه البكر . وكذلك بالنسبة إلى ابنه الثاني، دعاه افرايم قائلاً لأن الله جعلني مثمراً في أرض مذلتني" (تك ٤١: ٥١، ٥٢) . ذلك لأن معنى كلمة (إفرايم) هو الثمر المضاعف .

هناك أشخاص إذا حلت بهم المشاكل أو المتاعب يتذمرون على الله أو يجدفون عليه، أو يشكون قائلين : لماذا يفعل الله بنا هكذا؟ وأين هي رحمته؟! وأين استجابة الصلوات؟! أما يوسف ، وكذلك أيوب الصديق، لم يفعل أحد منهما هكذا ...

يوسف المدير

يوسف لم يفسر فقط الحلمين لفرعون ، بل قدم له الحل أيضاً .
لم يكن مثل الكثيرين الذين يتحدثون عن المشاكل، دون أن يساهموا في ذكر الحلول .
وكان الحل الذى قدمه حلاً عملياً وحكيمياً، أعجب به فرعون ، واعترف أن يوسف "رجل فيه روح الله" وأيضاً "بصير وحكيم" . لذلك منحه كل السلطات لكى يقوم بنفسه بهذا الحل . فقام بذلك وأنقذ الشعب من المجاعة .
كان يوسف أميناً فى عمله ومديراً حكيمياً .
كان أنجح وزير تموين فى كل تاريخ مصر .
كان مديراً ميدانياً . لا يجلس على مكتب ويصدر الأوامر . إنما كان ينزل إلى ميدان العمل ويشغل . كان يخزن القمح بنفسه . وكان يبيع أحياناً بنفسه . لقد أعطانا مثلاً عملياً عن رجل العمل الناجح .

قد يظن البعض أن الديانة مجرد صوم وصلاة وباقي أمور العبادة . أما يوسف فقدم لنا النموذج للديانة المخلصة فى العمل ، سواء فى عمله مع فوطيفار، أو مع فرعون . وهكذا نفذ بكل دقة وبكل نجاح الخطة التى وضعها لإنقاذ مصر من المجاعة ، بل إنقاذ كل البلاد المحيطة أيضاً . فأخوته أتوه من بلاد أخرى ...
بقية قصة يوسف مع أخوته . كيف قابلهم؟ وكيف تصرف معهم ؟

يوسف مع إخوته

البلاد المجاورة جاعت هى أيضاً . فقال يعقوب لأبنائه "قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر . انزلوا إلى هناك، واشتروا لنا من هناك قمحاً ولا نموت" (تك ٤٢: ١) .
"فأتى إخوة يوسف ، وسجدوا بوجوههم إلى الأرض" (تك ٤٢: ٦) .
سجدوا كما كان يسجد الباقون أيضاً له .. بل سجدوا له بعد ذلك مرات عديدة . وتحققت أحلام يوسف التى هزاها بها من قبل، حينما رأوه مقبلاً لافتقادهم وهو شاب "فقالوا بعضهم لبعض : هوذا صاحب الأحلام قادم . فالآن هلم نقتله .. فنرى ماذا تكون أحلامه" (تك ٣٧: ١٨ - ٢٠) .. أتريدون أن تعلموا ماذا تكون أحلامه؟ إنها أحلام من الله، وها هى قد تحققت .

لقد عوضه الله عن آلامه ، بتحقيق أحلامه ...

أما يوسف فكان - فى لقائه بأخوته - يدبر خطة معينة ، يستطيع بها أن يلتقى أيضاً بأبيه ، وبأخيه الشقيق بنيامين الذى احتجزه أبوه معه فلم يحضر مع أخوته . لو أنه أعطاهم القمح بسهولة ورحلوا ، ما كانت ستتحقق خطته . لذلك "تكرر لهم وتكلم معهم بجفاء" حتى يصل إلى ما يريده .

جفاء يقودهم إلى التوبة

وهنا نلاحظ ثلاث نقاط :

الأولى إنه عرفهم ، أما هم فلم يعرفوه (تك ٤٢ : ٨) . كما إنه من سؤاله لهم عرف أنهم من أرض كنعان ، وأن لهم أخاً مفقوداً ، وأخاً صغيراً يحبه أبوه ...

أما النقطة الثانية ، فهي أنه كان يتحدث معهم عن طريق "ترجمان كان بينهم" (تك ٤٢ : ٢٣) . كان يكلمهم بالهيروغليفية التى تعلمها وهو فى مصر ، وما كانوا هم يعرفونها . أما هم فكانوا يتكلمون بالعبرانية التى يعرفها ، ولا يظنون مطلقاً أنه يعرفها . فكانت أحاديثهم الخاصة مكشوفة كلها أمامه ، من حيث لا يعلمون .

أما النقطة الثالثة فهي أنه كان يتصرف بجفاء من الخارج ، بينما كان قلبه داخله مملوء حباً .. وكان يتأثر أحياناً من مذلتهم ، ويبكى .

كان يقسو على أخوته ظاهرياً . بينما لم تكن القسوة من طبيعه . وهذه القسوة الظاهرية هى التى قادتهم إلى إدراك خطاياهم السابقة والندم عليها .

حتى أنه حينما قال لهم "جواسيس أنتم . جئتم لتكتشفوا الأرض .. أحضروا أخاكم الصغير إلى فيتحقق كلامكم" (تك ٤٢ : ٩ - ٢٠) .. حينئذ قالوا بعضهم لبعض :

"حقاً إننا مذنبون إلى أخينا ، الذى رأينا ضيقة نفسه ، لما استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضيقة" وأجابهم رأوبين قائلاً : ألم أكلمكم قائلاً : لا تأثموا بالولد ، وأنتم لم تسمعوا ، فهوذا دمه يطلب" (تك ٤٢ : ٢١ - ٢٣) .

"فتحول يوسف عنهم ، وبكى" (تك ٤٢ : ٢٣) . هكذا كان قلبه الرقيق الحساس ، على الرغم من كلامه معهم بجفاء ..

كان بكاؤه حباً وتأثراً .. إنه لم يبك حينما ألقى فى البئر ، وحينما بيع عبداً . ولم يبك حينما أتهم ظلماً ، وألقى فى السجن بدون تحقيق ، وطالت مدته فى السجن .. لكنه بكى

حينما رأى اخوته مذلولين قدامه ..! حقاً إنه هو الذى أذلهم . ولكنه فى الداخل كان عطوفاً عليهم ويقودهم إلى التوبة .

أخوته لم يتمكن أبوهم من تربيتهم كما ينبغي ،
فتولى يوسف تربيتهم . ونجح فى ذلك .

كان يسوتيم على نار هادئة ، وهادفة... ولمعرفته بطباعهم وخبرته بهم، كان يرى أنه لو سلك معهم باللين على طول الخط، لن يصل إلى نتيجة معهم. وقد لا يرى أخاه بنيامين، ولا يرى أباه أيضاً.. ولكنه فى حكمة استطاع أن يذكرهم بصورة ما فعلوه من قبل.. أولئك الذين بكل استهانة ألغوه فى البئر، وجلسوا يأكلون ويتكلمون..! (تك ٣٧ : ٢٤ ، ٢٥) .

وهكذا أخذ شمعون ، وقيده أمام أعينهم (تك ٤٢ : ٢٤) . ولكن لماذا شمعون بالذات؟ ربما لأنه كان أعنفهم. هذا الذى اشترك من قبل مع أخيه لاوى، فى قتل أهل شكيم ظلماً، بعد أن اختتنوا جميعاً طبقاً للاتفاق (تك ٣٤ : ٢٥ - ٢٩) . وهكذا أن أباه يعقوب فى بركته الأخيرة لأولاده قبل وفاته، قال "شمعون ولاوى أخوان. آلات ظلم سيوفهما. فى مجلسهما لا تدخل نفسى. بمجمعهما لا تتحد كرامتى .. ملعون غضبيهما فإنه شديد، وسخطهما فإنه قاسٍ" (تك ٤٩ : ٥ - ٧) ...

لذلك أمر يوسف بتقييد شمعون أمام اخوته، ليريه أن العنيف الذى فيه، هو ذا ضعيف وذليل أمامه . لكى يخفض كبرياءهم ، ولكى يخيفهم فلا يتمرّدون عليه ...
كان قلبه يذوب اشتياقاً لرؤية شقيقه بنيامين . ولذلك قال لهم :

ليتحقق أن كلامكم صدق، اذهبوا واحضروا أخاكم الصغير (تك ٤٢ : ١٥ ، ١٦) .
فى الأول أمر بحبسهم جميعاً ، وواحد منهم يذهب لإحضار الأخ الصغير. ثم تحنن عليهم وقال: "فليحبس واحد منكم. وانطلقوا أنتم، وخذوا قمحاً لمجاعة بيوتكم . واحضروا أخاكم الصغير إلى. فيتحقق كلامكم ولا تموتوا" (تك ٤٢ : ١٩ ، ٢٠) . بهذا أعرف أنكم أمناء، ولستم جواسيس (تك ٤٢ : ٣٤) . ففعلوا هكذا وأخبروا أباهم بكل ما حدث "وإذ كانوا يفرغون عدالهم، إذا صرة كل واحد فى عدله" (تك ٤٢ : ٣٥) .. هذا ما كان قد فعله يوسف.. فخافوا .

ما كانوا يعرفون الحب ، لذلك قادهم يوسف بواسطة الخوف .
ورفض أبوهم أن يرسل بنيامين معهم. وقال لهم : أعدمتمونى الأولاد. يوسف مفقود،

وشمعون مفقود. وبنيامين تريدون أن تأخذوه!! وتعهد رأوبين باعادته إليه، وقال لأبيه: اقتل ابني، إن لم أجيء به إليك. ورفض يعقوب. ولكن لما اشتد الجوع في الأرض، عاد أبوهم يرسلهم إلى مصر. وأصروا على أخذ بنيامين معهم. وقال يهوذا "أنا أضمنه. من يدى تطلبه. إن لم أجيء به إليك.. أصر منبأ لك كل الأيام... ورضخ يعقوب أخيراً. وسلم بنيامين مع هدية ثمينة يقدمونها للرجل. وقال لهم "خذوا فضة أخرى في أياديكم. والفضة المردودة في أفواه عدالكم، ردوها. لعله كان سهواً" (تك ٤٣: ١٢).

عادوا إلى يوسف. وسلموه الهدية. وسجدوا إلى الأرض. سألهم عن أبيهم "أسالم أبوكم الشيخ الذي قُتِم عنه؟ أحي هو بعد". وسجدوا (تك ٤٣: ٢٦-٢٨). كانوا قد أعادوا الفضة، ولما أروه بنيامين، كان اللقاء طيباً، وأجلسهم ليأكلوا على مائدته. أجلسهم على المائدة بترتيب أعمارهم. فاندھشوا لذلك.

يوسف، لما رأى أخاه بنيامين، استعجل لأن أحشاه حنت إلى أخيه. فطلب مكاناً ليكي. ودخل مخدعه وبكى هناك (تك ٤٣: ٣٠).

في الواقع لا نجد في سفر التكوين كله إنساناً كثير البكاء والتأثر، مثل يوسف الصديق.. على أنه بعد أن بكى، غسل وجهه، وتجلد، وجلس معهم وأكل.

وكان قد أعطى لبنيامين من حصص الطعام أضعاف ما أعطاهم وأمر لهم يوسف بقمح أخذه في عدالهم، وصرفهم وبنيامين معهم. ولكن القصة لم تكن قد تمت فصولاً. بقي التأديب الأخير لهم، والإعتراف منهم. والإذلال، وشرح القصة كلها...

حيلة أخرى دبرها يوسف. قبل أن يصرفهم، كان قد وضع كأسه في أمتعة بنيامين. وبعد انصرافهم أرسل وراءهم من يفتشهم. فتعجبوا من إتهامهم بسرقة شيء بعد أن أعادوا الفضة من قبل.. وقالوا: من يوجد معه شيء يموت، ونحن نصير عبيداً لسيدي. ولما وُجد كأس يوسف في أمتعة بنيامين، مزقوا ثيابهم... واقتيدوا إلى بيت يوسف. ووقعوا أمامه على الأرض، فوبخهم على (سرقتهم!).

التوبة والمذلة

فقال له يهوذا: ماذا نقول لسيدي؟ وبماذا نتبرر؟! الله قد وجد إثم عبيدك... طلبوا أن يكونوا كلهم عبيداً ليوسف، ولكنه قال: الذي وُجد الطاس عنده هو يصير لى

عبدا . وأما أنتم فارجعوا إلى أبيكم ... وهنا وقف يهوذا متزللاً بكل أنواع التذلل، يكلم يوسف بكلام مؤثر جداً "استمع يا سيدي. ليتكلم عبدك كلمة في أذني سيدي، ولا يحم غضبك على عبدك.." ثم شرح ما حدث لهم مع أبيهم .

"قال لنا عبدك أبي: أنتم تعلمون أن إمرأتى ولدت لى إثنين. فخرج الواحد من عندي، وقلت إنما هو قد أفترس افترساً، ولم أنظره إلى الآن . فإذا أخذتم هذا أيضاً من أمام وجهي وأصابته أذية، تنزلون شيبتي بشرٍ إلى الهاوية" (تك ٤٤: ٢٧-٢٩) .

وشدّد يهوذا على هذه النبوة المؤثرة ، وهي موت أبيهم في حزن إن لم يرجع بنيامين ..

قال : إننا لا نقدر أن ننظر وجه الرجل، وأخونا الصغير ليس معنا .. فالآن متى جئت إلى عبدك أبي، والغلام ليس معنا، ونفسه مرتبطة بنفسه، يكون متى رأى أن الغلام مفقود، أنه يموت. فينزل عبيدك شبيه عبدك أبينا بحزن إلى الهاوية . لأن عبدك ضمن الغلام" .
"فالآن ليحكّ عبدك عبداً لسيدي، وليصعد الغلام مع أخوته. لأنى كيف أصدق إلى أبى، والغلام ليس معي ، لئلا أنظر الشرّ الذى يصيب أبى" (تك ٤٤: ٣٠-٣٤) .

كلام مؤثر ، ومن القلب ، وفيه وفاء للأب ، وحزن على ما يحدث لهذا الأب الذى يحبه يوسف، لأنه أبوه. حينئذ لم يستطع يوسف أن يضبط نفسه، فأطلق صوته بالبكاء، وعرف أخوته بنفسه .

يوسف يظهر ذاتة

كان قد أوصلهم إلى التوبة والمذلة . ولم يعد هناك مجال آخر للمعاملة الجافة . كما أنه تأثر جداً من خوفهم على أبيه . وحسناً أن الله أوصلهم إلى هذا الوضع المنسحق الذليل. مع أنهم كانوا فى هذا الموقف أبرياء، وقد وقعوا تحت ما شعروا به ظلماً . فتذكروا كيف كان يوسف بريئاً ، وقد وقع تحت ظلم منهم . وحسناً قالوا ليوسف "الله قد وجد إثم عبيدك.." ومتى وجده ؟ بعد حوالى عشرين سنة ...

إن الخطية لا تُحى بالمدة ، وإنما تُحى بالتوبة .

فلما وصلوا إلى هذه المذلة، واعترفوا بخطيتهم واستحقاقهم للعقوبة، انفتح أمامهم باب المغفرة . حينئذ بكى أخوهم الذى اساعوا إليه . وصرخ وقال لهم أنا يوسف . أحي أبى بعد ؟ فخافوا منه . فقال لهم : لا تتأسفوا إذ بعتمونى إلى هنا . لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى

الله قدامكم ...

لستم أنتم أرسلتموني إلى هنا ، بل الله .

وهو قد جعلني أباً لفرعون ، وسيداً لكل بيته ، ومتسلطاً على كل أرض مصر .

اسرعوا واصعدوا إلى أبي .." (تك ٤٥ : ١ - ٩) .

"ثم وقع يوسف على عنق أخيه بنيامين وبكى . وبكى بنيامين على عنقه" . ويبدو أن

هذا أمر طبيعي ، لأنه شقيقه ويحبه . ولم يكن قد اشترك معهم في اساعتهم إليه .. لكن

العجيب هو أن الكتاب يقول عن يوسف "وقبل جميع أخوته وبكى عليهم" (تك ٤٥ : ١٥) .

إن وصية "احبوا أعداءكم .. احسنوا إلى مبغضكم" التي قالها السيد المسيح على

الجبيل ، نفذها يوسف قبل أن يقولها الرب بحوالى ألفى عام .

وأيضاً نفذ وصية العفة ، قبل أن يكتب الله الوصية في اللوح من لوحى الشريعة

السابعة (لا تزن) في أيام موسى النبى .

كان ضميره حياً ، ينفذ وصايا الله بطبيعته النقية ، قبل الشريعة المكتوبة .

كان مستواه الروحى أعلى من عصره .

يوسف الصديق مع يعقوب أبيه

شوقه إلى أبيه

انتهت فترة التأديب الذي أدب بها يوسف أخوته . وأوصلهم إلى تذكرهم خطاياهم، والشعور بأنهم يستحقون كل ما صدر منه ضدهم، لا عن خطية حالية، إنما عن خطايا سابقة (تك ٣٧) .

ولم يكن يوسف يريد أن يعاقبهم ، إنما كانت حيلة منه يصل بها إلى رؤية أخيه وشقيقه بنيامين، وأيضاً لكي يرى أباه يعقوب.

فلما رأى أخاه بنيامين ، وأشبع عاطفته من هذه الناحية، وأكرمه أكثر من جميعهم، بقى أن يحقق الرغبة الأخرى، وهي أن يرى أباه... فلما عرفهم بنفسه، كانت أول عبارة قالها لهم هي "أحى أبى بعد؟" (تك ٤٥ : ٣) .. سألهم هذا السؤال على الرغم من أنهم قالوا له قبلاً إن لهم أباً شيخاً ، وأنهم يخافون عليه من الموت إن لم يرجع إليه فإنه الصغير بنيامين" (تك ٤٤ : ٣٠ ، ٣١) ...

ولكنها اللفتة في أن يرى أباه، جعلته يسأل : أحى أبى بعد؟ وأيضاً لمزيد من التأكد. ولاشك أنه حينما تحدث يوسف مع أخوته ، وكشف لهم ذاته قائلاً "أنا أخوكم يوسف الذى بعنموه" (تك ٤٥ : ٣) ، إنما كلمهم حينذاك بلغتهم العبرانية ، لكي يتأكدوا من كلامه . وواضح ذلك لأنه لم يكن بينه وبينهم مترجم وقتذاك . لأنه قبل أن يكشف نفسه لهم، صرخ قائلاً : أخرجوا كل إنسان عنى. "فلم يقف أحد عنده، حين عرف يوسف أخوته بنفسه" (تك ٤٥ : ١) .

كان يوسف قد تغير في الشكل والسن واللغة والملبس .

لذلك في كل لقاءاته معهم لم يعرفوه . حينما باعوه كان عمره ١٧ سنة (تك: ٣٧ : ١ ، ١٣ ، ١٨) . وحينما تقابل مع فرعون كان عمره ٣٠ سنة (تك: ٤١ : ٤٧) . وبعد سنوات الشبع السبع، أتت سنوات الجوع. في السنة الثانية منها، جاء إخوته إليه يطلبون قمحاً . بدليل أنه قال لهم لما عرفهم بنفسه "يكون أيضاً خمس سنين جوعاً" (تك: ٤٥ : ١١) .

إذن كان عمر يوسف وقتذاك ٣٩ سنة . وقد مضت ٢٢ سنة منذ ألقوه في البئر . ملابسه كانت أيضاً ملابس فرعونية . شكله تبدو عليه الهيبة . الناس يركعون أمامه ويسجدون عند قدميه . لغته هيروغليفيه ، وهناك من يترجم بينه وبينهم . كلامه معهم كلام سلطان . لذلك لم يعرفوه حتى كشف نفسه لهم . ولم يفعل ذلك إلا بعد أن تأكد من معلوماتهم التي قالوها له إنهم أخوته . كما فهم نفس الحقيقة من أحاديثهم بعضهم مع بعض . وما كانوا يدركون أنه يفهم ما يقولون .

فلما قال لهم : أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه .. أرتاعوا .

ظنوا أن وقت انتقامه قد أتى . وبخاصة لأنه لم يقل لهم فقط "أنا يوسف.." وإنما قال أيضاً "يوسف أخوكم الذى بعتموه .." . وما هم فى يديه يفعل بهم ما يشاء .. ولكن يوسف كان فى خلقه أنبل من أن ينتقم .. كان يدرك أنهم فى حالة ضعف وذعر ، وليس لديهم ما يجيبونه به . كما قال الكتاب "فلم يستطع أخوته أن يجيبوه ، لأنهم ارتاعوا منه" (تك: ٤٥ :

٣) .. نعم أرتاعوا من هذا الصغير الذى كانوا يهزأون به من قبل ..!

ولكن يوسف - فى نبل خلقه - طمأنهم . وأراهم مشيئة الله فى كل ما حدث ...

نعم، الله الذى يحول الشر إلى خير . "ومن الجافى يُخرج حلالة" (قض: ١٤ : ١٤) .. هو الله الذى وضع يوسف حياته فى يديه . ورأى أن كل ما يصيبه ، هو بسماع من الله لخيره ولذلك طمأن أخوته قائلاً لهم "والآن لستم أنتم أرسلتمونى إلى هنا، بل الله" " لا تتأسفوا ولا تفتأظوا لأنكم بعتمونى إلى هنا . لأنه لاستبقاء حياة أرسلنى الله قدامكم . لأن للجوع فى الأرض سنتين . وخمس سنين أيضاً لا تكون فيها فلاحه ولا حصاد . فقد أرسلنى الله قدامكم ، ليجعل لكم بقية فى الأرض" (تك: ٤٥ : ٥ - ٨) .

وهكذا ثلاث مرات كرر عبارة "أرسلنى الله" .

يوسف لم يذكر ما فى تجربته من ألم ، إنما ذكر ما فيها من تدبير إلهى ، وما فيها من خير له ولهم وللناس . فإنها "لاستبقاء حياة" .. بالحكمة التى وهبها له الله لانتقاذ حياة الناس خلال سنى المجاعة، سواء فى مصر أو أهله فى كنعان .. أما من جهته هو ، فقال: الله جعلنى أباً لفرعون ، وسيداً لكل بيته، ومتسلطاً على كل مصر" (تك ٤٥ : ٨) . وبعد أن طمأنهم ، ونزع الخوف من قلوبهم ، كلمهم من جهة أبيه وإحضاره إليه فى مصر .. فقال لهم :

"أسرعوا واصعدوا إلى أبى.. وتستعجلون وتنزلون بأبى إلى هنا" (تك ٤٥ : ٩ ، ١٣).

وفاء يوسف لأبيه

حمل يوسف أخوته رسالة إلى أبيه قائلاً له : "انزل إلى لا تقف " . "تسكن فى أرض جاسان ، وتكون قريباً منى أنت وبنوك وبنو بنيك" . "أعولك هناك، لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً " . "لئلا تفقر أنت وبيتك" (تك ٤٥ : ٩ - ١١) . إذن لم يأت بأبيه لمجرد اشتياقه إليه فقط، إنما أيضاً لكى يعوله وكل بيته . ويعول أيضاً أخوته الذين باعوه ، وكل بنينهم ...

ولم يجعل ذلك مجرد قرار فردى منه، عرضة للدساتس والتغيير، وإنما أخبر فرعون بكل شئ . وأخذ أمراً من فرعون أن يذهب أخوته لإحضار أبيهم، فيعطيه خيرات أرض مصر ويأكلون من دسم الأرض .. بل أيضاً أمر آخر لهم "خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم، وأحملوا أباكم وتعالوا .." (تك ٤٥ : ١٧ - ١٩) .

وكان يوسف كريماً جداً مع أخوته وأبيه :

أرسل معهم مركبات تحملهم . وأعطاهم زاداً للطريق ، وحلل ثياب حتى يكون مظهرهم لانقاً . وأرسل معهم دواباً تحمل لأبيه حنطة وخبزاً، وتحمل من خيرات مصر . وقال لأخوته "لا تتغاضبوا فى الطريق (تك ٤٥ : ٢١ - ٢٤) .. كان يعرف هذا الطبع فيهم. فقدم لهم نصيحة روحية، إلى جوار ما قدمه لهم من خيرات مادية .

لم يكن يوسف مثل الذين يتجاهلون أهلهم الفقراء ، إذ صار لهم منصب كبير .

فى كل ما وصل إليه من عظمة ، لم ينسَ أباه الراعى، الذى كان شبه ضرير وقد نقلت عيناه من الشيخوخة (تك ٤٨ : ١٠) . أراد أن يفرح أباه فى شيخوخته ، ويعوضه عن سنى التعب والألم التى مرّ بها ... وما كان أبهج الخبر الذى نقله إليه أولاده ، حينما

رجعوا بالمركبات من مصر، قاتلين له :

"يوسف حتى بعد ، وهو متسلط على كل أرض مصر" (تك ٤٥ : ٢٦) .

يوسف الذى رأى يعقوب قميصه الملون ملطخاً بالدم ، وبكى عليه ، ورفض أن يتعزى . وقال : إبنى أنزل إلى إبنى ناثحاً إلى الهاوية (تك ٣٧ : ٣٣ - ٣٥) . ثم يأتيه الخبر أنه لا يزال حياً ، بعد ٢٢ عاماً من الحزن عليه . فكان تأثير هذا الخبر عليه لأول وهلة ، أنه "جمد قلبه ولم يصدقهم" (تك ٤٥ : ٢٦) . ثم عاد وتقبل الخبر ، لما رأى العجلات الفرعونية التى أرسلها يوسف إليه . فرأت روحه إليه وقال "يوسف إبنى حتى . كفى . أذهب وأراه قبل أن أموت" ...

الله يطمئن يعقوب

فى نزول أبينا يعقوب إلى مصر أثناء المجاعة ، اختلف عن جده ابراهيم الذى قال الكتاب عنه "وحدث جوع فى الأرض . فاتحدر ابرآم إلى مصر ليتعرب هناك ، لأن الجوع فى الأرض كان شديداً " (تك ١٢ : ١٠) . إنها نفس الظروف التى دعت يعقوب أيضاً للنزول إلى مصر . ولكن وجه الخلاف أن جده ابرآم نزل بمشيئته الخاصة ، وليس بمشيئة الله الذى سبق أن قال له "أذهب من أرضك .. إلى الأرض التى أريك" (تك ١٢ : ١) ... لذلك وجد متاعب كثيرة فى مصر نجاه الله منها (تك ١٢ : ١٤ - ١٩) ... أما يعقوب فظهر له الله فى رؤيا . وقال له "لا تخف من النزول إلى مصر .. أنا أنزل معك إلى مصر .." (تك ٤٦ : ٢) .

يعقوب لم ينزل ، دون الإتصال بالله أولاً . فلما أتى إلى بئر سبع ، ذبح ذبائح لإله أبيه اسحق" (تك ٤٦ : ١) . .. إنه لا يريد أن يتلقى الدعوة إلى السفر من يوسف فقط ، وإنما من المذبح أيضاً . فأتاه الرد إذ "كلمه الله فى رؤى الليل" وقال له "أنا الله إله أبيك . لا تخف من النزول إلى مصر ، لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك . أنا أنزل معك إلى مصر" . عجيبة هى علاقة الله بـيعقوب ...

يعقوب الذى خدعه من قبل خاله لآبان . بل خدعه أبناؤه من جهة قميص يوسف الذى غمسوه فى الدم . وما كان يحتمل أن يقع فى خديعة أخرى منهم . فطمأنه الله أن يوسف سيضع يده على عينيك (تك ٤٦ : ٤) .

حسناً قيل إن "الله أحب يعقوب" (رو ٩ : ١٣) .

نعم ، أحب هذا الضعيف الذى لم تكن له القوة أن يقاوم الشر .. الذى لم يستطع أن يقاوم عيسو، بل هرب منه . فى رجوعه إلى بيت أبيه صلى إلى الله قائلاً للرب "تجننى من يد أذى، من يد عيسو، لأنى خائف منه أن يأتى ليضربنى الأم مع البنين " (تك ٣٢: ١١) . نعم يعقوب هذا الضعيف الذى لم يستطع أن يقاوم خاله لابان لما خدعه وزوجه ليئة بدلاً من راحيل (تك ٢٩: ٥) .. كذلك لم يستطع أن يقاوم أولاده فى موقفهم مع يوسف أخيه (تك ٣٧) . ولا استطاع أن يقاومهم فى غدرهم بشكيم وكل قبيلته، فقتلوه جميعاً بسبب دينه أختهم (تك ٣٤) . كما لم يستطع أن يقاوم ابنه البكر رؤبين ، لما صعد على فراشه وزنى مع بلهة سرية أبيه (تك ٣٥: ٢٢) . وسمع يعقوب ولم يفعل شيئاً !! . لذلك كان ملاك الرب مع هذا الضعيف باستمرار .

هذا الذى قال عنه فى مباركة افرام "الملاك الذى خلصنى من كل شر، يبارك الغلامين" (تك ٤٨: ١٦) . وقال فى عرفانه بعمل الله معه "الله الذى يرعائى منذ وجودى إلى هذا اليوم" (تك ٤٨: ١٥) . الله أيضاً طمأنه فى رؤيا الليل ، لينزل إلى مصر محاطاً برعاية الله له . فنزل إلى هناك مع كل أسرته . وكانت جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعين نفساً (تك ٤٦: ٢٧) .

ووصل يعقوب إلى مصر فى موكب كمواكب الملوك .

وصل راكباً فى عجلات فرعون التى أرسلها إليه ابنه يوسف ..

إنها أول مرة فى حياته يركب مثل هذه العجلات الملكية ، كأب لمن قيل عنه إن الله جعله أباً لفرعون .. وربما أول مرة فى حياته وحياة أولاده يلبسون الحلل الفخمة التى أرسلها معهم يوسف .

وكان من إكرام يوسف لأبيه ، أنه ذهب لاستقباله فى الطريق.

شد يوسف مركبته ، وصعد لاستقبال أبيه إلى جاسان (تك ٤٦: ٢٩) . ولو عرفنا أن أرض جاسان فى مكان محافظة الشرقية، نعرف مقدار المسافة التى قطعها يوسف من العاصمة، حتى وصل بمركبته إلى جاسان لاستقبال أبيه .. هذا الثانى فى المملكة ، لم ينتظر حتى يصل أبوه، ويستقبله فى مجيئه . إنما هو الذى يذهب إليه، ويقابله فى الطريق. لكى يعرف الجميع عظمة هذا الراعى الذى يذهب إليه المتسلط على كل أرض مصر .

"ولما ظهر له وقع على عنقه ، وبكى على عنقه زماتاً" (تك ٤٦: ٢٩) .

إنها العاطفة المخزونة مدى ٢٢ عاماً ، تنفجر الآن فى عنق وفى دموع .. هنا اللسان يعجز عن الكلام . إنما الحب هو الذى يعبر عما فى القلب من مشاعر . حب الإبن لأبيه الذى قضى كل فترة شبابه محروماً من حنان أبيه الذى أحبه وفضله على كل أخوته . وحب الأب لإبنه الذى ظن أنه مات ، وناح عليه أكثر من عشرين سنة .

وأخبر يوسف فرعون بمجئ أبيه وأخوته ، وقدمهم إليه .

يوسف نائب فرعون ، لم يخجل من أن أباه وأخوته رعاة .

لم يستح منهم ولا من غنمهم وبقرهم .. هناك أشخاص يستحون من فقر أقربائهم . أما يوسف فلم يكن هكذا . قد يحدث أن بواباً يقوم بالإتفاق على إينسه فى التعليم حتى يصير طبيباً . وإذا بهذا الإبن الطبيب يستحى من الإنتساب إلى أب بواب .. محبته لنفسه ولسمعته تطغى على محبته لأبيه ...

أما يوسف فأدخل أباه الراعى إلى فرعون ، وأوقفه أمامه .

فاحترمه فرعون ، لأجل إبنه ، ولأجل سنّه ونعمة الله عليه . وسأله عن سنى حياته . فأجاب يعقوب "أيام سنى غربتى مائة وثلاثون سنة ، قليلة وردية ، ولم تبلغ إلى أيام سنى حياة آبائى فى أيام غربتهم" (تك:٤٧ : ٩) . قال هذا لأن أبا الآباء ابراهيم مات وعمره ١٧٥ سنة (تك:٢٥ : ٧) . كذلك عاش اسحق ١٨٠ سنة (تك:٣٥ : ٢٨) .

وحسناً أن يعقوب اعتبر حياته أيام غربة .

كذلك قال عن حياة آبائه "أيام غربتهم" . ولعل ذلك كان درساً لفرعون . وفى هذا اللقاء بين يعقوب وفرعون ، قال الكتاب مرتين "وبارك يعقوب فرعون" (تك:٤٧ : ٧ ، ١٠) . هنا القداسة أعلى من الملك . فيمكن أن رجل الله يبارك رجل العرش والحكم والدولة ، كما بارك يعقوب فرعون ...

إن إخلاص يوسف لفرعون ، جعله يكرم أباه وأخوته .

حكمة يوسف وأمانته فى عمله ، وانقاذه لمصر فى أيام المجاعة .. كل ذلك جعل فرعون يحترمه ، ويحترم أباه ، ويستقبل أخوته ، ويكرم هذه الأسرة كلها .. ويقول ليوسف "أرض مصر قدامك ، فى أفضل الأرض اسكن أبائك وأخوتك . ليسكنوا فى أرض جاسان . وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة ، فاجعلهم رؤساء مواشٍ على التى لى" (تك:٤٧ : ٥ ، ٦) .

وعال يوسف أباه وأخوته وكل بيت أبيه .

"وسكنوا فى أرض جاسان ، وتملكوا فيها ، وأثمروا وكثروا" (تك:٤٧ : ٢٧) وهناك

ملاحظة نقولها عن حياة يعقوب .

لما رأى يعقوب إبنه يوسف بعد طول أيام نواحه عليه . قال له - بعد أن بكى على عنقه "لموت الآن بعد أن رأيت وجهك أنك حي". ولكنه لم يمت بعد أن رآه ، بل عاش ١٧ سنة مع يوسف فى أرض مصر (تك٤٧: ٢٨) . حينما رأى يوسف وفرعون كان عمره ١٣٠ سنة (تك٤٧: ٩) . إذن كانت كل أيام عمره ١٤٧ عاماً .

أيام يعقوب الأخيرة

لما أحس أن أيامه قد قربت ، أخذ عهداً من يوسف أن يدفنه فى مقبرة المكفيلة . هناك حيث دفن إبراهيم جده (تك٢٥: ٩) . وكانت قد دفنت هناك جدته سارة (تك٢٣: ١٩) وفى مقبرة للمكفيلة أمام ممرا التى هى حبرون فى أرض كنعان . وهناك أيضاً دفن ليوه اسحق (تك٣٥: ٢٧-٢٩) . وأمه رةقة ، وزوجته لينة (تك٤٩: ٣١) . إنه أمر مؤثر أن يطلب إنسان أن ترفد عظمه إلى جوار عظام أبائه . وهكذا استدعى يعقوب إبنه يوسف ، إبنه الذى يأتئنه على وصيته . وقال له : "اصنع معى معروفاً وأمانة . فلا تدفنى فى مصر . بل اضطجع مع آبائى . فتحملنى من مصر ، وتدفنى فى مقبرتهم " فحلف له يوسف . وسجد يعقوب على رأس عصاه (تك٤٧: ٢٦-٣١) .. لعل فى ذلك درساً للذين يسألون عن شرعية حرق جثث آبائهم وأقربائهم . ليست فقط الأرواح تتجول ، وإنما للعظام أيضاً . وهكذا فعل إبنه يوسف أيضاً فيما بعد ، فأوصى من جهة عظمه (عب ١١: ٢٢) .

بركة ونسوة

على أن يعقوب قبل أن يموت برك أولاده ، وإبنى يوسف (إفرايم ومنسى) . إفرايم ومنسى : أحضرهما يوسف أمام أبيه لكى يباركهما . ففرح بهما يعقوب واحتضنهما وقال ليوسف ثم لكن لظن لئى أرى وجهك . وهذا الله قد أرانى نسلك أيضاً (تك٤٨: ١١) . ومنحهما يعقوب نصيباً كاهنين من لبنائه ، كرؤبين وشمعون . أى صار ليوسف بلينيه سبطان من الأسباط الإثني عشر ، أى نصيب البكر وسط أولاد يعقوب . لذلك حينما نذكر أسماء الأسباط ، نذكر بينها سبطى إفرايم وسبط منسى ، بدلاً من قولنا سبط يوسف ..

ملاحظة نقولها عن حياة يعقوب .

لما رأى يعقوب إبنه يوسف بعد طول أيام نواحه عليه . قال له - بعد أن بكى على عنقه "لموت الآن بعد أن رأيت وجهك أنك حي". ولكنه لم يمت بعد أن رآه ، بل عاش ١٧ سنة مع يوسف فى أرض مصر (تك٤٧: ٢٨) . حينما رأى يوسف وفرعون كان عمره ١٣٠ سنة (تك٤٧: ٩) . إذن كانت كل أيام عمره ١٤٧ عاماً .

أيام يعقوب الأخيرة

لما أحس أن أيامه قد قربت ، أخذ عهداً من يوسف أن يدفنه فى مغارة المكفيلة . هناك حيث دفن إبراهيم جده (تك٢٥: ٩) . وكانت قد دفنت هناك جدته سارة (تك٢٣: ١٩) "وفى مغارة للمكفيلة أمام معرا التى هى حبرون فى أرض كنعان" . وهناك أيضاً دفن ليوه اسحق (تك٣٥: ٢٧-٢٩) . وأمه رةقة، وزوجته لينة (تك٤٩: ٣١) . إنه أمر مؤثر أن يطلب إنسان أن ترفد عظمه إلى جوار عظام آبائه . وهكذا استدعى يعقوب إبنه يوسف ، إبنه الذى يأتئنه على وصيته. وقال له : "اصنع معى معروفاً وأمانة. فلا تدفنى فى مصر. بل اضطجع مع آبائى . فتحملنى من مصر، وتدفنى فى مقبرتهم " فحلف له يوسف . وسجد يعقوب على رأس عصاه" (تك٤٧: ٢٦-٣١) .. لعل فى ذلك درساً للذين يسألون عن شرعية حرق جثث آبائهم وأقربائهم . ليست فقط الأرواح تتجول، وإنما للعظام أيضاً. وهكذا فعل إبنه يوسف أيضاً فيما بعد، فأوصى من جهة عظمه (عب ١١: ٢٢) .

بركة ونسوة

على أن يعقوب قبل أن يموت برك أولاده ، وإبنى يوسف (إفرايم ومنسى) . إفرايم ومنسى : أحضرهما يوسف أمام أبيه لكى يباركهما . ففرح بهما يعقوب واحتضنهما وقال ليوسف ثم لكن لظن لئى أرى وجهك . وهذا الله قد أرانى نسلك أيضاً" (تك٤٨: ١١) . ومنحهما يعقوب نصيباً كاهنين من أبنائه ، كرؤبين وشمعون. أى صار ليوسف بئنيه سبطان من الأسباط الإثني عشر ، أى نصيب البكر وسط أولاد يعقوب . لذلك حينما نذكر أسماء الأسباط، نذكر بينها سبطى إفرايم وسبط منسى، بدلاً من قولنا سبط يوسف ..

موت يوسف

عاش يوسف مائة وعشر سنين ، أى أربعة وأربعين سنة بعد موت أبيه. ورأى الجيل الثالث لأفرايم . استحلف أخوته أن يحملوا عظامه من مصر (تك: ٥٠ : ٣٢ - ٣٦) .
وتتبع يوسف عن خروج أخوته من أرض مصر (تك: ٥٠ : ٢٤) .
وفى ذلك قيل فى الرسالة إلى العبرانيين "بالإيمان عند موته، ذكر خروج بنى إسرائيل، وأوصى من جهة عظامه " (عب ١١ : ٢٢) .
وهكذا تنبأ ، وكان أيضاً من رجال الإيمان .
وفى خروج بنى إسرائيل من مصر، قيل فى سفر الخروج "وأخذ موسى عظام يوسف معه . لأنه كان قد استحلف بنى إسرائيل بحلف قائلاً : إن الله سيفتقدكم، فتصعدون عظامى من هنا معكم" (خر ١٣ : ١٩) .
بركة يعقوب أبى الآباء ، وإينه يوسف الصديق ، فلنكن معنا جميعاً .

سنوات مع أسئلة الناس

من ٧٩ - ٨٧ (٩ كتب)

اشغل كتاباً أخرى

الرعاية

الأنجيل الأربعة

الأجبية

حياة داود

الله والإنسان

دم ونسار

مصطلحات الكتاب المقدس

الخدمة (ج ٤)

حول لاهوت المسيح

(ج ٢)

٦٧- مارمرقس

٦٨- الأنبا أنطونيوس

٦٩- القمص ميخائيل

إبراهيم

حياة التوبة

٧٠- حياة التوبة والنقاوة

٧١- اليقظة الروحية

٧٢- السهر الروحي

٧٣- الرجوع إلى الله

٧٤- مخافة الله

كلمة منفعة

من ٧٥ إلى ٧٨ (٤ كتب)

٥٤- المطهر

٥٥- الكهنوت

٥٦- لاهوت المسيح

٥٧- اللاهوت المقارن

٥٨- طبيعة المسيح

الوصايا العشر

٥٩ إلى ٦٢ - (٤ كتب)

شخصيات

٦٣- آدم وحواء/قايين وهابيل

٦٤- يعقوب ويوسف

٦٥- موسى وفرعون

٦٦- يونان

الكتاب المقبل

يصدر قريباً بمشيئة الله كتابنا التالي عن :

حياة داود النبي

هو سلسلة من التأملات الروحية في حياة هذا النبي العظيم الشاعر، العميق والرفيق في مزاميره. وأيضاً هذا الملك الممسوح من الله: في قوته، وفي ضيقاته، وفي عمل الله معه ...

سنوات مع أسئلة الناس

من ٧٩ - ٨٧ (٩ كتب)

اشغفركتباً أخرى

الرعاية

الأنجيل الأربعة

الأجيال

حياة داود

الله والإنسان

دم ونار

مصطلحات الكتاب المقدس

الخدمة (ج ٤)

حول لاهوت المسيح

(ج ٢)

٦٧- مارمرقس

٦٨- الأنبا أنطونيوس

٦٩- القمص ميخائيل

إبراهيم

حياة التوبة

٧٠- حياة التوبة والنقاوة

٧١- اليقظة الروحية

٧٢- السهر الروحي

٧٣- الرجوع إلى الله

٧٤- مخافة الله

كلمة منفعة

من ٧٥ إلى ٧٨ (٤ كتب)

٥٤- المطهر

٥٥- الكهنوت

٥٦- لاهوت المسيح

٥٧- اللاهوت المقارن

٥٨- طبيعة المسيح

الوصايا العشر

٥٩ إلى ٦٢ - (٤ كتب)

شخصيات

٦٣- آدم وحواء/قايين وهابيل

٦٤- يعقوب ويوسف

٦٥- موسى وفرعون

٦٦- يونان

الكتاب المقبل

يصدر قريباً بمشيئة الله كتابنا التالي عن :

حياة داود النبي

هو سلسلة من التأملات الروحية في حياة هذا النبي العظيم الشاعر، العميق والرقيق في مزاميره. وأيضاً هذا الملك الممسوح من الله: في قوته، وفي ضيقاته، وفي عمل الله

معه ...

الفهرست

صفحة

٥	 مقدمة
٧	 يعقوب أبو الآباء
٨	 اختاره الله واحبه فقبل أن يولد
١٣	 في سعيه وراء البكورية البركة
٢٠	 متاعبه بعد البركة
٢٦	 كان هارباً وخائفاً ، ولكن الله معه
٣٢	 عهد مع الله في بيت إيل
٣٦	 ملاحظات على قصة زواجه
٤١	 صراع بين زوجتين
٤٦	 رحلة عودته إلى بيت أبيه ، وصراعه مع لابان
٥٢	 في رحلة العودة : خوفه من أخيه عيسو
٥٨	 أبونا يعقوب مع مشاكل أولاده
٦٣	 يوسف الصديق :
٦٤	 تأملات في حياته
٧٠	 يوسف الصديق وكم قاسى من أخوته
٧٨	 يوسف في بيت فوطيفار ، وفي السجن
٨١	 قصيدة هوذا الثوب
٨٦	 يوسف والأحلام
٩٢	 كيف إلتقى يوسف مع أخوته وأبيه
٩٩	 يوسف الصديق مع يعقوب أبيه
١١٠	 كتب صدرت لقداسة البابا
١١٢	 فهرست الكتاب

فصل الكتاب

بسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد آمين
نحدثك هنا عن أبينا يعقوب ،
والكثير من مشكلته :
* مشكلته في الحصول على
البكرية والبركة .
* مشكلته مع أخيه عيسو .
* مشكلته مع خاله لابان .
* مشكل زواجه ولولاده .
* مشكلة ابنه يوسف مع أخوته
* أيضاً : الله في حياته .
ثم تدخل في حياة يوسف :
* في بيت فرطيفار وفي
السجن .
* أحلامه ورؤاه وحكمه لمصر .
* لقاء عجيب ومثير مع أخوته .
* اللقاء مع أبيه .
* وفاة يعقوب ثم وفاة يوسف .
في كل هذا : كيف كان الله
يعمل ؟ وكيف سالت مشيئته .
البابا شنودة الثالث